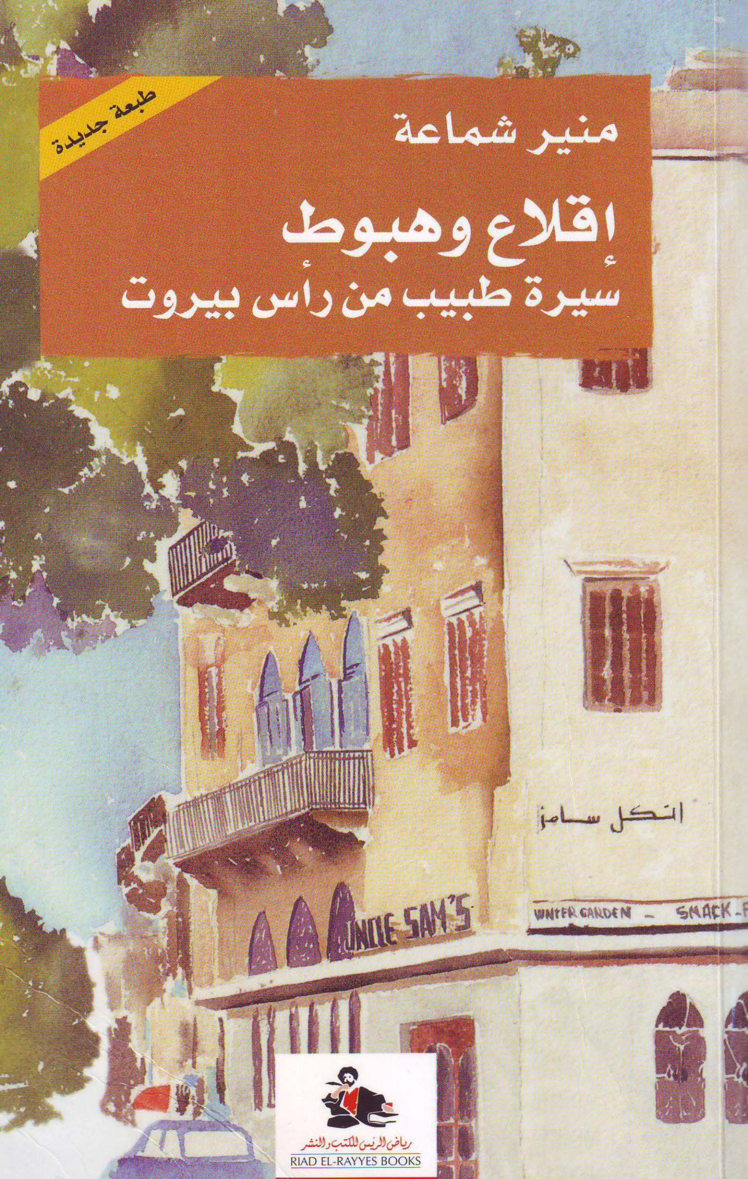
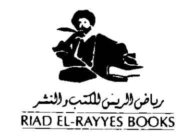

طبعة جديدة
منير شماعة
إقلاع وهبوط
سيرة طبيب من رأس بيروت
انكل سامز
UNCLE SAM'S
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

طبعة جديدة

منير شماعة

إقلاع وهبوط

سيرة طبيب من رأس بيروت



Take Off and Landing

An Autobiography of Ras Beirut Physician

Mounir Shammaa

First Published in January 2000
Second edition published in August 2008
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 388 - 7

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠
طبعة جديدة: آب (أغسطس) ٢٠٠٨

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

لوحة الغلاف: حمادة زعيتر
تصميم الغلاف: دينا خليفة
(محترف بيروت غرافيكس)

المحتويات

إهداء

إلى تيريز ورملي

شكر

إن هذا الكتاب لم يكن ليبصر النور لولا التشجيع
والجهد اللذان بذلتهما الصديقة ليلى سليم القاضي

المقدمة

في كانون الأول ١٩٩٧ ذهبت إلى معرض الكتاب العربي الذي ينظمه النادي الثقافي العربي في بيروت، واستوقفني عنوان كتاب اسمه «سنضحك» للصديق الأديب الأستاذ زكريا تامر الذي أكرمني بإهدائه إليَّ كلمة على كتابه. وقلت له حينذاك إنني بصدد كتابة مذكراتي وآمل أن أنهيها في خلال سنتين. فسألني لماذا تريد أن تكتب مذكراتك؟ وكان جوابي أنّ «الموضة» تقضي على كل مثقف أو من يدّعي الثقافة مثلي أن يكتب مذكراته قبل فوات الأوان.

ففي البناية التي أسكنها كتب صديقي الدكتور يوسف سلامة مذكراته ونشرها، وهو ما زال يكتب قصصاً وحكايات. كما أن الصديقة العزيزة السيد جين مقدسي كتبت باللغة الإنكليزية مذكراتها عن الحرب اللبنانية القذرة.

وصديقي وزميل الدراسة الدكتور هشام شرابي كتب مذكرات عن حياته بدءاً بفلسطين، مروراً بالجامعة الأميركية في بيروت وانتهاء بأميركا؛ فضلاً عن عدد كبير من الأصدقاء والمعارف الذين كتبوا مذكراتهم أو هم يفكّرون في كتابتها. وعندي أنّ لهذه الظاهرة تفسيراً بسيكولوجياً.

فعندما يصل الإنسان إلى عمر معيّن وتبدأ رحلته الأخيرة ينتابه القلق لأنه سيذهب بلا طنّة أو رنّة، فيعمل على كتابة مسيرته آملاً أن يترك بصمة في أذهان الناس.

وهناك سبب ثان، ربما كان الأهم، يدفع الإنسان إلى كتابة مذكراته. فبعد عمر معين تتقلص نشاطات الإنسان ويبدأ الفراغ يلعب بالأعصاب، ولتفادي هذه الآفة يبدأ الإنسان بالكتابة آملاً أن تملأ وقته وتبعد عنه الضجر بانتظار الآخرة، ولنا حديث مسهب عنها في فصل الشيخوخة.

أما السبب الثالث الذي يجعلني أكتب مذكراتي فهو قناعتي بأنني عشت حياة غنية بعلاقاتها الإنسانية الحميمة. فكوني طبيباً يجعل علاقاتي مع المريض، مهما علا شأنه، علاقات متميزة، سواء كان ملكاً أو قائداً أو رئيس جمهورية أو رئيس وزراء، إذ إن المريض هو الذي يتطلّع إلى لقائي وهو الذي يحتاج إليّ فيأتيني في أضعف حال، ومقابلته لي تمتاز بالصدق وعدم المراوغة. فهو عار من الثياب وعار من كل الصفات التي يتميز بها في أيامه العادية. وقد تكون هذه الميزة هي التي تغطي نقاط الضعف في مذكراتي، فأنا لست بالأديب. فليعذرني قرائي، إذا هم قرأوا هذا الكتاب،

واستخلصوا الحقائق بشكلها المبسّط.

وبعد، فقد قسمت هذا الكتاب إلى عدة فصول يشبه كلّ منها مرحلة من المراحل التي تمرّ بها الطائرة من إقلاع وتحليق وهبوط، مع ما يعترض كل مرحلة من مطبّات، ووضعت نفسي بالجسد والروح تحت أضواء المجهر آملاً أن أكتشف كل موجودات صندوقي الأسود.

الفصل الأول

الإقلاع

اختلفت الآراء في تاريخ ولادتي. فمنهم من قال إني ولدت في ٦ أيار ١٩٢٨، ومنهم من شكّك بهذا التاريخ. وبالرغم من عدم أهمية الموضوع، فقد ترعرعت على يقين بأني ولدت في ٦ أيار، وقد دوّن هذا التاريخ على صفحات بيضاء في آخر الكتاب المقدس (التوراة) حيث دوّن أيضاً تاريخ ولادة جميع أفراد العائلة. ولما بدأت أتقن القراءة، وكانت قراءتي آنذاك تنحصر بصحيفة «لسان الحال» ومجلة «اللطائف المصورة» المصرية، جاء تاريخ ٦ أيار فتصفحت الجريدة ورأيت على الصفحة الأولى صوراً لمشانق الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا، مثل الحاج محمد طبارة والد أستاذي الدكتور رياض طبارة، وبيترو باولي، وله مسكن في الشارع الذي ولدت فيه. ولما تكررت ذكرى ٦ أيار، وكل احتفالي بمولدي يذكرني بالمشانق، وجدت أنه من الأفضل أن أغير هذا التاريخ فانتقيت الرقم ٢١، وهو رقم أرتاح إليه ويعطيني نفحة من التفاؤل.

ولدت يوم الخميس حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر كما قالت لي خالتي الست روزا، القابلة القانونية التي ولّدت الكثير من أبناء جيلي في تلك الأيام. والولادة كانت في البيت، في غرفة كبيرة كانت تسمى غرفة «الصالية» والصالية كلمة مشتقة من اللغة الإيطالية وتعني الصالون أو غرفة الاستقبال، وكان لها مدخل خارجي منفصل عن مدخل البيت.

وقالت خالتي روزا لأمي «يا أدما، مبروك الصبي». فجاوبت الست أدما بغضب: «أنت تكذبين عليَّ يا روزا، فما زلت أشعر بالجنين في بطني». فضحكت روزا وقالت: «إن رأسه ما زال في بطنك لكنه ولد بالمقلوب وبوّل عليَّ قبل أن يخرج الرأس، وهو ذكر كما قلت لك». وبعد جهد جهيد خرج الرأس وولد منير.

سرّت أمي بهذا المولود الجديد، بالرغم من أنه لم يكن في الحسبان. فالعائلة آنذاك كانت تتألف من ثلاثة صبيان وثلاث بنات، ما عدا الذين توفوا أو الذين ماتوا قبل الولادة. وكانت الوالدة آنذاك في منتصف الأربعينيات من عمرها، ولذا تخوفت من أن ترزق في آخر الزمان ولداً مشوّهاً أو معتوهاً. فلجأت إلى طبيبها الدكتور فيليب أشقر الذي استعمل كل الطرق للخلاص من هذا الجنين، من حقن شرجية إلى جرعات كبيرة من زيت الخروع، إلى الضرب على البطن. وعبثاً حاولت. وولدت بالرغم من أمي ومن الطبيب.

أذكر كل هذا لأن إخوتي كانوا دائماً يذكرونني بهذا الموضوع، وكانوا يلقبونني بـ «شرشوح القرقة»، ويؤكدون أني جئت بالغلط.

كل هذا أثّر فيّ نفسياً وأنا صغير، وصمّمت من اليوم الذي بدأت

أدرك فيه الأمور أن أبرهن لهم يوماً أن «شرشوح القرقة» هو «وجه السحّارة».

لا أذكر من السنوات الأربع الأولى سوى ما قالته لي والدتي وخالتي روزا التي كنت أحبها كثيراً. كنت طفلاً لا يمت إلى الجمال بصلة، وكنت عصبي المزاج. وكنت أكره الأكل. وما أذكره جيداً أن والدتي كانت تلقمني الطعام فأرفع يدي بالرفض، فتجبرني بلقمة أخيرة يليها استفراغ لكل ما أكلته. والآن، وبعد مضي سبعين سنة على هذه الظاهرة، أجدها تتكرّر عند الأطفال المتوترين عصبياً.

بدأت دراستي وأنا في الخامسة من العمر في الحضانة عند الست أمينة المقدسي، عمة صديقي الدكتور سمير مقدسي. وكانت مدرستها تقع في ما يسمى اليوم بشارع المقدسي. كنت أكره الذهاب إلى المدرسة، خصوصاً أن في البرنامج ساعة نوم. كل الأطفال ينامون ما عداي. أتحجج كل يوم عند ذهابي صعوداً من شارع جان دارك إلى شارع المقدسي أنني «لا أستطيع الوصول لأن الهواء يرجعني» فأبقى قرب والدي في المطعم الذي يديره وأتحدث مع «الجرسون» نجيب. ولما تعلمت القراءة بدأت أتلذذ بقراءة الأمثال على الروزنامة. وأذكر ذات يوم أنني مررت على عيد «الحبل بلا دنس» في روزنامة «لسان الحال» المعلّقة على الحائط في المطعم، والتي كان يكتب عليها حِكَم طريفة وتدوّن عليها كل الأعياد، فسألت والدي «ما هو الحبل بلا دنس؟» فقال لي: استحي يا ديّوس». وظل معنى «الحبل بلا دنس» مجهولاً لديَّ حتى بلوغي سن الرشد. وتعبير «يا ديّوس» لم يكن مستعملاً، ولم أسمعه إلّا من بعض المسنين في رأس بيروت. تركت الحضانة وبقيت في البيت.

وفي سنة ١٩٣٥ التحقت بالمدرسة الابتدائية التابعة آنذاك للجامعة الأميركية. أحببت هذه المدرسة من اللحظة الأولى. كنت أذهب إليها مشياً على الأقدام عبر شارع بلس حاملاً حقيبة الكتب «والسطيلة» التي تضع فيها أمي سندويشاً من اللبنة والزيتون وتفاحة كي أتناولها في الساعة العاشرة. ولم تدرِ أمي أبداً أنني كنت أرمي السندويش والتفاحة في خروق في حائط على طريقي إلى المدرسة. وعندما أرجع بعد الظهر والسطيلة خالية تستقبلني أمي قائلة: «يقبر أمو ما خلّا شي في السطيلة». وذكرياتي في هذه المدرسة كانت جميلة للغاية. تعرفت إلى أطفال من كل البلاد العربية. ومن أصدقائي الذين كنت ألعب معهم الشيخ عبد الله الغانم الذي صار من أكبر رجال الأعمال في الكويت، والصديق المرحوم زياد الشواف الذي أصبح سفيراً للمملكة العربية السعودية، وجاسم فخرو وهو من كبار التجار البحرينيين، وغيرهم. وبالرغم من التفاوت المادي الكبير ما بيني وبينهم والذي كان يظهر في ملابسي وفي «خرجيتي» التي كانت لا تتجاوز نصف قرش يومياً، فإن صداقتنا كانت حميمة جداً.

من أطرف ذكرياتي في تلك الحقبة الفرصة التي كنا نستمتع بها لمدة ثلاثين دقيقة عند الساعة العاشرة. فمنّا من كان يلعب ومنّا من كان يأكل السندويشات. أما أنا، وخصوصاً في موسم التوت، فكنت أذهب إلى الحديقة المجاورة للمدرسة الابتدائية التي يملكها رجل يدعى هاني. كان في الحديقة شجرة توت ملأى بالثمار الطيبة. وكان العم هاني يؤجرنا الشجرة لمدة خمس دقائق معدودة بقرش إذا قطفنا التوت ونحن على الأرض، وبقرشين إذا عربشنا على الشجرة. وكنت أدرس خطة الهجوم على شجرة التوت لمدة قصيرة قبل استئجارها لأؤمن أكبر كمية من القطاف في الدقائق

الخمس إذ كان العم هاني يذكّرنا بانتهاء الوقت وبيده قضيب طويل من القصب.

أما بالنسبة إلى الدراسة فكنت من الأوائل دائماً، وكنت أتباهى أمام والدي ووالدتي بملاحظات المعلمين بعد كل فصل، وأذكر منها «عافاك يا بطل» و«إلى الأمام يا بطل».

وبالرغم من قساوة المدرسة، وقساوة المعلمات والمعلمين الذين كانوا يضربوننا أحياناً بالمسطرة عند القيام بأي شغب، وبالرغم من تدقيقهم في نظافتنا الجسدية كل صباح قبل الدخول إلى الصفوف فاحصين آذاننا وأظافرنا، بالرغم من كل هذا، كنا ننظر إلى أساتذتنا كما ننظر إلى الأب أو إلى الأم الحنون التي تهتم بصغارها.

أنهيت السنوات الابتدائية الست بأربع سنوات، إلى أن تخرجت سنة ١٩٣٩ من المدرسة الابتدائية ودخلت ما يسمى آنذاك بالمدرسة الاستعدادية.

وفي صيف ١٩٣٩ ذهبنا كالعادة لنصطاف في ضهور الشوير. والاصطياف في ذلك الوقت يختلف كثيراً عن الاصطياف في وقتنا الحاضر. فالاصطياف آنذاك مشروع كبير تنتقل فيه العائلة مع أثاث المنزل، بما في ذلك أدوات المطبخ والمونة من أرز وبرغل وزيتون ولبنة مجففة منقوعة بالزيت. وكل هذا ينقل بشاحنة تليها سيارة التاكسي التي تقلنا. وفي ذلك الوقت لم يكن في رأس بيروت سوى سيارتين للأجرة، واحدة يملكها نصري الجرداق، والثانية يسوقها حنا الميت. ولقب حنا بالميت لأنه كان يقود ببطء شديد فتستغرق الرحلة من بيروت إلى ضهور الشوير حوالى الساعتين، مع

العلم أن عدد السيارات التي كنا نصادفها على الطريق ذهاباً وإياباً لا يزيد على خمسين سيارة. وفي كل مرة نقصد فيها ضهور الشوير يخبرنا الوالد عند وصولنا إلى كوع قبل بكفيا قصة هذا الكوع الذي يدعى «كوع الست»، وهو الكوع الذي قتلت فيه إحدى سيدات المجتمع قبل وجود السيارات في لبنان إذ تزحلقت عنده عربة الخيل التي كانت تقلّها فقتلت على الفور.

والاصطياف في ضهور الشوير كان بمثابة قصاص كبير لأننا كنا نبقى ثلاثة أشهر في الجبل دون أن ننزل إلى بيروت. وكنت أعد الساعات والأيام كالسجين منتظراً الإفراج عني للنزول إلى بيروت، إلى أن جاء أول أيلول ١٩٣٩ وكنت ماراً في سوق البلدة فرأيت في مقهى نصر الذي كنت أرتاده لأكل البوظة جماعة كبيرة وهم يستمعون باهتمام كبير إلى أخبار الراديو، فسألت أحدهم: «شو عم بيصير؟» فقال: «علقت الحرب» إذ هجم الجيش الألماني على بولونيا. فركضت إلى البيت وقلت لوالدي: «بابا، بابا علقت الحرب». وكانت ردة فعل الوالد أن قال: «أدما، ضبضبي البيت فنحنا نازلين بكرا إلى بيروت». وكانت فرحتي كبيرة إذ إن نزولنا إلى بيروت في الأيام العادية لا يحصل يتم قبل أسبوع من ابتداء الفصل الدراسي، أي في أول تشرين الأول. ولا يسعني إلّا أن أعترف في هذا المجال بأن الحرب العالمية الثانية كانت مصدر لذة كبيرة لي لاهتمامي الشديد بالتاريخ والجغرافيا والمعارك الحربية وتحركات الجيوش. وكان من أكبر لذاتي تفحص الخرائط الجغرافية فجاءت الحرب لتغذي هذه الهواية إلى أن أصبحت، وأنا في الحادية عشرة من العمر، الخبير الأول في رأس بيروت في تقصي أخبار المعارك والمحلل العسكري المعتمد، وانتشر خبر اهتمامي بهذه الشؤون بين أهل الحي.

وكانت لي جلسات يومية مع الجيران من آل بخعازي وربيز وأبو سمرا ليستمتعوا مني إلى شرح للمعارك الدائرة بين الروس والألمان. وأذكر من الحضور جرجي الفرمشاني وسليمان الحداد والسنيور وفيليب الملك، وكلهم من عائلة بخعازي، وكان لكل لقبه. ولهذه الألقاب أسباب، فهي تزيل الالتباس بين اثنين يحملان الاسم نفسه، كما أنها تدل إما على هواية الشخص أو على طبيعة عمله كالحداد أو الفرمشاني. أما بالسنيور فلقّب بذلك لأنه أمضى وقتاً قصيراً في البرازيل حيث كانوا ينادونه بالسنيور. وأما فيليب الملك فنظراً لشبهه الكبير بجورج الخامس ملك إنكلترا آنذاك. وخضعت لهذه الألقاب أيضاً عائلة ربيز التي كانت أكبر عدداً، فكان فيها ما لا يقل عن عشرين جورج ربيز، منهم جورج فورد الأخصائي بتصليح سيارت فورد الأميركية، وجورج سوكوني لعمله في شركة سوكوني للبترول، وجورج كاوتشوك لتعاطيه ببيع دواليب السيارات.

وإبان الحرب، لما دخلت الجيوش الألمانية روسيا، قامت قيامة الجماعة الأرثوذكسية في رأس بيروت واتخذ أبناؤها موقفاً معادياً للألمان الذين يقتلون ضباط الروم وجنودهم. فروسيا بالنسبة إليهم كانت إمبراطورية الروم وأمهم الحنون، وصوَر القيصر وبطريرك الروس تزين جدران العديد من بيوتهم.

وبعد كل انتصار عسكري يحققه القادة الروس كالماريشال تيموشكو وبوديني وجوكوف كانت تُسمع الزلاغيط ويعمّ الابتهاج.

ومن أهم ما اختبرته في الحرب العالمية الثانية بروز ظاهرة الطائفية للمرة الأولى في تفكيري. فعائلتنا، بالرغم من أنها مسيحية، لم تكن يوماً تعير ممارسة الطقوس الدينية اهتماماً. فالوالد والوالدة لم يتعودا

الذهاب إلى الكنيسة ولم يشجعانا على أي نوع من التعاليم الدينية. والمرات القليلة التي كنا نذهب فيها إلى الكنيسة كانت في عيد الفصح لنشاهد الفتيات بلباس العيد، وفي عيد السيدة لنأكل التمرية.

أما عيد الميلاد فلم يكن له أهمية عند الطائفة الأرثوذكسية إذ كان يمرّ كبقية الأيام. فتربينا على هذا المنهاج العلماني منذ الصغر، مع العلم أن الوالد علّمنا كيف نصلي بقولنا صباحاً «الحمد لله» ومساءً «الشكر لله». وبقيت هذه العادة معي إلى اليوم.

وكان أول اختبار لي مع الطائفية في المدرسة إبان الحرب العالمية الثانية حين انقسم الطلاب إلى قسمين. فالمسلمون كانوا مع المحور، أي ألمانيا وإيطاليا، والمسيحيون كانوا مع الحلفاء. وبالرغم من صداقات المسلمين والمسيحيين الحميمة، فإن الاختلافات كانت صاخبة عندما تبحث مسيرة المعارك. وقد تجلّت هذه الظاهرة بوضوح عندما دخل الجيش الألماني بقيادة الجنرال رومل إلى أفريقيا الشمالية ووصل بهجومه إلى قرب الإسكندرية، فهلّل له المسلمون وأصيب المسيحيون بنكسة وإحباط إلى أن انقلبت الصورة وهجم الجنرال الإنكليزي مونتغومري وطرد الألمان وأنزل بهم خسائر فادحة فهلّل له المسيحيون. وكان «التزريك» يبدأ كلّما حدث كرّ وفرّ بين الجيش الألماني والجيش البريطاني.

واسترعت تلك الظاهرة انتباهي ولم أستطع فهمها آنذاك. فالطائفية بالنسبة لي لم تكن في الحسبان، وبالأخص في رأس بيروت التي كانت المثل الأعلى للانصهار الوطني.

ولا بد من القول إن الاختلافات، بالرغم من هذا الانقسام الطائفي، لم تتعدّ التحيّز إلى هذه القوة الخارجية أو تلك. فالمسلم والمسيحي في ذلك الوقت كانا متفقين على كل الأمور التي تتعلق بوطنهم، والصداقات الحميمة بين العائلات المسيحية والعائلات المسلمة لم تعكرها أي شائبة.

وأذكر على سبيل المثل حادثة طريفة جرت عندما دخل الحلفاء إلى بيروت وهزموا جيش فيشي الفرنسي الذي كان الحاكم في بيروت. وحصل استعراض عسكري كبير في ساحة البرج، وكان الجنرال ديغول قائد قوات فرنسا الحرة على رأس هذا الاستعراض. فزججت نفسي بين الجماهير المحتشدة لأشاهد أفواج جنود الحلفاء تمرّ بانضباط، وسمعت أحد المشاهدين يهمس في أذن صديقه قائلاً: «عبد، شوف كيف ماشين مثل النمورة». فأجابه صديقه غاضباً: «الكلب إذا انتصر بيصير نمر».

وكان للحرب العالمية الثانية تأثير كبير في مستوانا المعيشي. ففي أوائل الحرب، أي في شهر آب ١٩٤٠، توفي والدي وله من العمر ٥٤ عاماً إثر نوبة قلبية صاعقة، وأصبحت أمي المعيل الوحيد لثلاثة شبان وثلاث بنات، فتسلمتْ إدارة المطبخ في المطعم الصغير الذي كان يديره أبي واستغنت عن الطبّاخ حتى توفّر نفقاته. وكنا نعمل أنا وأخي إميل في المطعم ليلاً، نخدم الزبائن ونقدم إليهم أطباق الطعام مع «الجرسون» نجيب. وإضافة إلى عملي «جرسون» في المطعم أوكلت إليَّ مهمة ضبط حسابات الزبائن الذين يدفعون شهرياً، وكان لكل واحد منهم دفتر صغير يدوّن عليه ثمن الوجبات التي طلبها. وكانت الأسعار في تلك الأيام تتراوح ما بين ٨ قروش لصحن الأرز مع الخضرة أو

الحبوب كالفاصوليا واللوبيا والبازيلا، و١٢ قرشاً لصحن اللحوم كالبفتاك والروستو، وكان سعر صحن الدجاج هو الأغلى إذ كان يقارب العشرين قرشاً. وكانت أسعار المقبلات كالحمّص والفول والفتّوش وكذلك كل أنواع الحلويات كالمهلبية والرز بحليب والكريم كاراميل لا تتجاوز الخمسة قروش.

فمعظم زبائن المطعم كانوا من محيط الجامعة، أساتذة وتلاميذ. والأغلبية كانت من المصريين الأقباط الذين التحقوا بكلية الصيدلة في الجامعة الأميركية فضلاً عن عدد من الفلسطينيين والأردنيين وبعض الضباط الفرنسيين الذين طالت إقامتهم في بيروت وتعوّدوا على المطبخ اللبناني.

ومما استرعى انتباهي عند التدقيق في دفاتر الزبائن أن الأغلبية الساحقة منهم كانت تطلب الوجبات التي لا يزيد سعرها على الثمانية عشر قرشاً، باستثناء عدد قليل جداً من الزبائن الذين كانوا ينفقون ما بين خمسة وعشرين قرشاً على الوجبة الواحدة. فسألت والدتي كيف يستطيع هؤلاء أن ينفقوا هذه المبالغ الباهظة من المال على الطعام. فأجابتني بأن كل هؤلاء هم من الفلسطينيين الذين كانوا أغنى الشعوب العربية، يأتون إلى لبنان البلد الرخيص ويصرفون كل جنيه فلسطيني بعشر ليرات سورية، كما كانت تدعى عملتنا آنذاك، فينفقون المال بلا حساب ويأكلون الدجاج بدلاً من الفاصوليا أو الأطباق الرخيصة الأخرى.

وبسبب تردّي حالتنا المادية اضطر أخي الكبير ميشال إلى ترك دراسته في الجامعة وتسلّم وظيفة كانت تدر عليه ٤٢ ليرة شهرياً، وهو أجر كبير في تلك الأيام، كما أن شقيقتيّ الكبريين إفلين

وماري ذهبتا إلى بغداد حيث مارستا التعليم وكانتا تمدّاننا بالمال شهرياً.

وقد وصلت بنا الحال من انقطاع الموارد، وخصوصاً في أيام الصيف حين كان المطعم يقفل لمدة ثلاثة أشهر، إلى حدّ اضطرارنا إلى اقتصاد كبير في مأكلنا. وكنا أنا وأخي إميل، تفادياً لشراء الخبز، نعجن الطحين في البيت ثم نأخذ العجين إلى الفرن لخبزه. كما كنا نذهب أحياناً إلى مسبح الجامعة الأميركية نلتقط التوتيا والصدف بكميات كبيرة ونأكلها. أما طعامنا اليومي فكان يقتصر على البرغل والحمص وبعض الخضرة مطعمة بقليل من اللحم أو بمرقة اللحم. وكان التقنين في المواد الغذائية قاسياً جداً بسبب الحرب، فالزبدة مثلاً كانت مفقودة تماماً ولم يكن متوافراً سوى المارغرين، وهو سمن نباتي.

حياتنا البيتية كانت سعيدة جداً. وأذكر أن العلاقة بين الوالد والوالدة كنت علاقة حب متين. فبالرغم من الاختلاف الجذري في أطباعهما فقد كانا متفقين على كل شيء. الوالد كان مرحاً لا تغيب الابتسامة عن وجهه ولا يأبه للصعاب، وكان حديثه ملذاً. وكان طلاب الجامعة الأميركية يأتون إلى المطعم ليس للأكل فقط بل لحضور جلساته الممتعة. أمّا الوالدة فكانت جديّة بكل ما لهذه الكلمة من معنى. تحسب الحسابات الدقيقة وتفكر في المستقبل البعيد لها ولأولادها. أغرمت بالشاب الوسيم حنا شماعه وتزوجته رغم أنه لم يكن يملك سوى ظرفه. تعلم الخياطة لكنه لم يكن يحسن خياطة الجاكيتات فاقتصر عمله على خياطة البنطلونات. أميّ لا يقرأ ولا يكتب ويتكلم لغتين، التركية والعربية. علّمته أمي القراءة والكتابة، وهي السيدة المتعلمة التي كانت من أوائل النساء اللواتي تخرجن من المدرسة الأميركية.

جو بيتنا كان مريحاً جداً. أختي الكبيرة إفلين كانت بمثابة أم لي. كانت تكبرني بعشرين عاماً. وكانت مربيتي لأن أمي كانت منهمكة في إدارة المطعم. وبقيت إفلين إلى يومها الأخير تنظر إليَّ نظرتها إلى طفل صغير.

الحياة في المنزل كانت روتينية جداً. أستيقظ صباحاً، أغسل وجهي بالماء البارد صيفاً شتاءً، ألتهم عروس اللبنة مع الزعتر في طريقي إلى المدرسة. الغداء والعشاء كانا في المطعم عند الوالدة، إلّا أني بالرغم من تنوّع الأطباق كنت أفضل الأكل عند خالتي روزا التي ولّدتني، وكنت أتلذذ بالمجدرة والفتوش الذي كان الطبق اليومي عندها. والحمّام الساخن كان مشروعاً أسبوعياً بإدارة أختي الكبيرة إفلين. فيوم الجمعة مساءً، أي بعد انتهاء الأسبوع الدراسي، يصطف أفراد العائلة كالجنود بانتظار دورهم في الحمام. أما بقية الأيام فكان الغسيل، كما قلت، يقتصر على غسل الوجه صباحاً وغسل الأرجل بالماء البارد مساءً قبل النوم.

أما الحياة الاجتماعية فكانت تمثّل نقيض حياتنا المعاصرة. ففي أيامنا هذه، تشكّل ولائم الغداء والعشاء محور الاجتماعات التي يتباهى فيها الناس بالبذخ والترف فيقدمون عشرات من الأطباق وأنواعاً مختلفة من الحلوى والفاكهة وسيلاً من مختلف المشروبات الروحية، ولا يبدأون بتناول الطعام قبل الساعة الحادية عشرة ليلاً. أما في تلك الأيام فكان النمط السائد عنوانه السترة والتقشف، فلا أذكر أننا دعونا أحداً يوماً أو دعينا إلى غداء أو عشاء. فالزيارات بين عائلات رأس بيروت كانت تقتصر على فنجان من القهوة أو الشاي مع قطعة من مربى البوصفير المجفف أو حبة من الملبس. ولا أذكر أننا كنا نشرب الكحول في بيتنا، باستثناء والدي الذي كان يشرب كأساً

من العرق مع طعام الغداء يوم الأحد. ولا أذكر يوماً أننا تناولنا الطعام في المطاعم كما يفعل الآن الناس الذين يتباهون باكتشاف مطعم هندي جديد هنا وصيني أو ياباني هناك. ولم يكن في رأس بيروت آنذاك سوى ثلاثة مطاعم قرب الجامعة هي مطعم فيصل الشهير ومطعم شماعه ومطعم لرجل أرمني. وكل هذه المطاعم كانت تعمل على تقديم الطعام لتلامذة الجامعة. والمرة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى مطعم آنذاك كانت عندما أخذني أخي الكبير مع الصديق الأستاذ رامز شحادة، وهو من مؤسسي حزب «النداء القومي»، إلى مطعم فرنسي شمالي البرج حيث أكلنا ما شئنا وشرب أخي وصديقه النبيذ الفرنسي الأحمر والأبيض، واسترعت انتباهي الفاتورة التي بلغت أربعين قرشاً عن كل شخص، فصعقت بالأسعار الباهظة.

وفي صيف ١٩٤٣ دخلت جيوش الحلفاء لبنان آتية من فلسطين بعد معارك ضارية، وامتلأت بيروت بجنود الجيش الثامن البريطاني من إنكليز وأستراليين ونيوزيلانديين. فبدأ الجيش البريطاني يستعين بالعديد من الشبان اللبنانيين الذين يتقنون اللغة الإنكليزية للقيام بأعمال مختلفة كالترجمة وشراء الأغذية والخدمات السكريتارية وغيرها. وكانت المعاشات التي يدفعونها تزيد أضعافاً عمّا كان أبناء البلد يتقاضونه. فعمّت البحبوحة ونشطت التجارة، وخصوصاً اللاشرعية منها، إذ كان الكثير من الجنود والضباط البريطانيين والأستراليين يبيعون المعلبات والبطانيات والسجائر وكل ما تناولته أيديهم من مخلفات الجيش، ويتقاسمون الأرباح بينهم وبين اللبنانيين. وكان الجنود، وخصوصاً أفراد الفرقة الأسترالية، من محبي السهر والسكر والعربدة في حوانيت شارع الزيتونة، مما نشّط الحركة «السياحية» في بيروت فكثرت «الأرتيستات» والمومسات اللواتي جمعن أموالاً طائلة.

ومن أطرف الأحداث التي عشتها في تلك الفترة ما حصل عندما جاءني جندي برتبة «كابورال»، وكنت كعادتي بعد الظهر أتمشى في الجامعة الأميركية وأحفر اسمي على شجرة الكينا، فاقترب مني وسألني إذا كنت أتكلم الإنكليزية. وقال لي إنه من أستراليا ومن مدينة ملبورن وإنه يختلف عن زملائه الأستراليين إذ إنه لا يحب السهر والشرب والعربدة، وكل ما يريده هو أن يتعرف إلى عائلة لبنانية ويجلس معها في البيت. ثم قال بصوت ملؤه الحزن: «أنا أشعر بالوحدة وأتوق إلى أن أكون في جو عائلي». فقلت له: «تعال معي إلى بيتنا القريب من الجامعة وسأعرفك إلى أخي الكبير ميشال الذي هو من عمرك، وأهلاً وسهلاً بك في أي وقت تشاء».

دخلنا أنا ومايكل غريغوري إلى البيت وتعرف إلى أمي وأختي وجلس بيننا في الدار وبقي يزورنا يومياً من الساعة الخامسة مساءً إلى الساعة السابعة محضراً معه علباً من «الكورن بيف»، وعند الساعة السابعة نستمع إلى نشرة الأخبار بالإنكليزية من الإذاعة البريطانية في لندن بواسطة الراديو الضخم الذي اشتراه أخي، وهو من أول الراديوات في رأس بيروت.

وبعد شهرين صدر الأمر بإجلاء الفرقة الأسترالية عن لبنان، فرحل مايكل ولم أسمع أيّ خبر عنه إلا بعد سبعة وثلاثين عاماً، أي سنة ١٩٨٠، عندما وصلتنا رسالة من محام أسترالي في ملبورن يقول فيها إن شخصاً يدعى مايكل غريغوري توفي وكتب في وصيته أن خمسين بالمئة من ثروته خصصت لعائلة شماعه في بيروت. وعلّل ذلك بالقول إن مايكل غريغوري كتب في وصيته أنه أوصى لعائلتي بهذا المبلغ لأنه قضى أسعد أيامه وهو جالس بيننا في بيروت إبان الحرب الثانية، وأنه لم يشعر بالدفء العائلي والصداقة الحميمة

سوى عندنا. فقد مات أبوه وهو طفل ولم تكن والدته تهتم بشؤونه أبداً، لكنه أوصى لها بالخمسين بالمئة الباقية لأنها كانت عجوزاً في المستشفى ويلزمها المال للمعالجة. وعلمنا أيضاً في ذلك الوقت أن مايكل غريغوري كان يرسل مساعدات إلى شقيقتي ماري التي تزوجت ضابطاً إنكليزياً من الجيش الثامن في بيروت وبعدها انتقلت إلى مدينة نوتنغهام في بريطانيا أيام التقنين الحاد. وكانت تكتب لنا أن شخصاً ما كان يرسل لها كل شهر صندوقاً كبيراً مملوءاً بالمعلبات واللحوم المجففة من دون أن يذكر اسمه أو مصدر الإرسال، إلى أن اكتشفنا أن مايكل غريغوري الذي عرف من أخي الكبير في إحدى المراسلات القليلة بينهما عنوان أختي في توتنغهام، هو الذي كان يرسل لها هذه المساعدات. وكان لهذه الحادثة أثر عميق لدى جميع أفراد العائلة.

دخلت الجامعة سنة ١٩٤٣، وهناك بدأت المشاكل وخصوصاً النفسية منها. فكنت أصغر الطلاب وأقلهم شأناً من الناحية المادية مما جعلني أنزوي لعدم قدرتي على مجاراتهم اجتماعياً. فبينما كانوا هم يتمتعون بجلساتهم في مطعم فيصل ويأكلون ويدخنون ويتحدثون عن مغامراتهم النسائية ثم يذهبون إلى السينما، كنت أنا أقبع في غرفتي مطالعاً ما تيسّر لي من الكتب والمجلات. وأذكر أني كنت أوفر خرجيتي التي أصبحت خمسة قروش في الأسبوع لأذهب إلى السينما مرة في الشهر. وكانت أسعار التذاكر تتراوح ما بين عشرة قروش وخمسة عشر قرشاً. فسينما الكريستال مثلاً كانت أرخص السينمات، ومن الممكن فيها المفاصلة على الثمن، فكنت أنجح في خفض الثمن إلى أربعة قروش. أما صالتا الأمبير والروكسي اللتان كانتا تعدان من أفخم الصالات فكان السعر فيهما محدوداً ولا مجال للمساومة. وتبقى مشكلة الانتقال من رأس بيروت إلى

البرج، وكلفته قرشان في الدرجة الثانية من الترامواي وقرشان ونصف في الدرجة الأولى. وكانت المقاعد في الدرجة الأولى مبطنة بالقش وفي الدرجة الثانية مصنوعة من الخشب بدون أي تبطين. ولتفادي كلفة المواصلات كنت أستقل الترامواي وأراقب مركز موظف التذاكر، فأقف على أبعد نقطة عنه، وعندما يقترب مني تكون القاطرة قد قطعت محطتين أو أكثر، فأنزل من الترامواي وهو يسير، وأنتظر الحافلة الثانية، وهلمّ جراً، إلى أن أصل إلى ساحة البرج. أما الرجوع من البرج إلى رأس بيروت فكان أسهل، إذ إن الحافلات كانت تكتظ بالناس الخارجين من دور السينما مما يتيح لي أن أقطع المسافة كلّها من دون أن يصل موظف التذاكر إليَّ.

أما السبب الثاني لمشاكلي النفسية فهو صغر سني الذي جعلني أقل قدرة من رفاقي على معاشرة الفتيات، فكنت أنصت بحسرة وحسد واهتمام إلى أحاديثهم عن مغامراتهم العاطفية التي اكتشفت في ما بعد أنها من صنع مخيلاتهم. والذي زادني حزناً نظرتي إلى نفسي، إذ كنت واثقاً من أنني «بشع» المنظر ولن أرضي أي فتاة. فتقوقعت لمدة ثلاث أو أربع سنوات، وانصببت على القراءة والدرس وقضيت معظم الوقت في مكتبة الجامعة. وأذكر أنني كنت أقرأ الأنسيكلوبيديا بدءاً بالحرف الأول من الأبجدية. وفي الليل كنت أستعير الكتب من المكتبة وأقرأ إلى ما بعد منتصف الليل، مما جعلني أتقن اللغة الإنكليزية إتقاناً جيداً. بالنسبة إلى رفاقي التلامذة. وكانت معلوماتي العامة غنية جداً فربحت يوماً الجائزة الأولى في مسابقة المعلومات العامة التي اشتركت فيها مع جميع طلاب الجامعة الأميركية في بيروت. كل هذا لم يعوّض شعوري بالنقص، للأسباب التي ذكرتها، فبقيت خجولاً بالرغم من ثقتي بأنني أذكى من كل طلاب صفي.

والعنوان الأكبر والحدث الأهم في السنوات الأولى من الدراسة الجامعية هو الحرب العالمية الثانية التي توّجت بالهجوم الكبير لقوات الحلفاء في أيار ١٩٤٤ على الجيوش الألمانية في شمال فرنسا. أذكر ذلك اليوم جيداً إذ جمعنا الأستاذ زين نور الدين زين في ملعب الهوكي المجاور لبيت رئيس الجامعة وبدأ يشرح لنا بطريقته المشوّقة تفاصيل هجوم الحلفاء مستعيناً بخريطة كبيرة للساحل الفرنسي الشمالي.

ومن أهم ذكريات أيام الجامعة تعرّفي إلى العديد من الشبان الذين احتلوا فيما بعد مراكز القرار في لبنان وفي بعض الدول العربية الأخرى. وأذكر منهم الصديق المرحوم عمر السقاف الذي أصبح وزير دولة للشؤون الخارجية في المملكة العربية السعودية، وهو أول رجل سعودي من خارج العائلة المالكة يتبوأ هذا المركز.

أما الجو السياسي والاجتماعي في الجامعة في حقبة ١٩٤٣ ــ ١٩٤٧ فكان يسوده اتجاهان. الاتجاه الأول هو الاتجاه القومي السوري الذي استقطب نخبة من الشبان من جميع الأديان ومن جميع البلدان وصهرهم بطريقة مثلى، وخصوصاً من الناحية الثقافية، وجعلهم من العلمانيين. والذي استرعى انتباهي وجعلني أميل إلى الانخراط في هذا الحزب المتطور وجود شعبة له تهتم بالفن في نادٍ في شارع بلس قرب الجامعة الأميركية. وكان عميد الثقافة في الحزب آنذاك الدكتور فايز صايغ يجمعنا كل أسبوع مرة ويسمعنا الموسيقى الكلاسيكية ويفسر لنا مقطوعات من بيتهوفن وباخ وموزار. فطلبت من صديق أخي السيد لبيب قدورة الذي كان عضواً بارزاً في الحزب أن يساعدني على الانخراط فيه. لكن حين ذهبت إلى بيته لإكمال المعاملة سمعت شعارات ذكّرتني

بالنازية والفاشية، فقررت عدم الانخراط فعلياً في الحزب القومي السوري، مع إيماني الكبير برقيّه وعلمانيّته ومحازبيه.

أما الاتجاه الثاني فكان اتجاه العروبيين أو المؤمنين بالوحدة العربية، لأن فكرة القومية العربية كما عرفناها لاحقاً لم تكن موجودة في ذلك الحين. وبرزت حركة سياسية أسستها شلة من المثقفين اللبنانيين أمثال كاظم الصلح وتقي الدين الصلح ورامز شحادة وغيرهم، وكان خطهم السياسي خطاً عربياً واضحاً لا دور للطائفية فيه. وسمّيت هذه الحركة بحزب النداء القومي، وكان لها منشورات عديدة تدعو إلى الوحدة العربية ورصّ الصفوف ونبذ الخلافات.

ثم جاء دور القوميين العرب حوالى سنة ١٩٤٨. فكان الدكتور قسطنطين زريق يعقد اجتماعات سرّية يحاضر فيها عن فكرة العروبة ويعرّفها بطريقة أكاديمية ويحثّ على العمل لتطوير هذه الفكرة ونشرها بين جميع المثقفين العرب في كل الأقطار العربية. وكان للجامعة الأميركية في بيروت الدور الأكبر في انتشار هذا التيار الفكري، فأحيا طلاب الدكتور زريق مجلة «العروة الوثقى» التي توقفت في أثناء الحرب العالمية الثانية ثم عادت إلى الظهور بعد نهايتها. والجدير بالذكر أن كل مؤسسي الحركة كانوا من أصدقائي، ومنهم الدكتور جورج حبش زميل الصف في كلية الطب وزميل المسكن في النادي الثقافي البريطاني لمدة أربع سنوات على التوالي. وكان لـ«الحكيم»، كما لقب في ما بعد، أثر كبير في تفكيري السياسي. معرفتي بجورج حبش قبل ١٩٤٧ كانت عادية جداً لم يتخللها أي حديث سياسي. كنا نتناقش في مواضيع دراسية في كلية الطب أو نستمع إلى الموسيقى، فالحكيم كان من هواة الموسيقى وكان ذا صوت جميل. ثم وقعت كارثة ١٩٤٨ في

فلسطين فجاءنا جورج في تشرين الأول من العام نفسه وأخبرنا عن معاناته وعن مسيرته الطويلة من بلدته اللد وهو يحمل على كتفه طفلة شقيقه التي ما لبثت أن فارقت الحياة. وما هي إلّا أيام حتى انضم مع بعض زملائه إلى منظمة فكرية يشرف عليها الدكتور قسطنطين زريق، والد الدكتور أديب نصور من أهالي حمص. ومن ثم انتقل الدكتور حبش من العمل الفكري البحت إلى تفكير عملاني فانضم إلى كتائب الفداء العربي التي كانت تتدرب على حمل السلاح في مكان ما خارج بيروت.

ولن أنسى أبداً جلساتنا العديدة في مسكننا في المركز الثقافي البريطاني وهو يردد بتأثر عميق: «يَا منير، إنني من اللد وأريد الرجوع إليها بأي ثمن. هذا حق بسيط لأي إنسان في وطنه». ومنذ ذلك الحين كرّس جورج حبش حياته كلها من أجل استعادة حقوق الشعب الفلسطيني، وولدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من صلب حركة القوميين العرب التي تأسست في بداية الخمسينيات.

ومن الأعضاء البارزين في شلة الدكتور زريق الدكتور وديع حداد الذي هو، بالرغم من كل ما نشر عنه في وسائل الإعلام الغربي، من أصدق وأنبل الرجال الذين عرفتهم والذين عملوا في القضية العربية والقضية الفلسطينية ومات شهيداً في سبيلهما. وكان الثنائي حبش وحداد من أهم القادة الفلسطينيين آنذاك إلى أن اختلفا على مسألة العمليات الخارجية التي لم يكن يوماً للدكتور حبش علاقة بها. فوديع حداد، «أبو هاني»، كان المخطط لكل هذه العمليات التي شلمت خطف الطائرات وضرب الهيئات الاقتصادية التي تموّل إسرائيل. وازدادت الخلافات بين «أبو ميساء» و«أبو هاني» إلى أن

انشق الأخير عن الجبهة الشعبية بعدما حذّر رفاقه من الوقوع في وحول الأردن ولبنان، وهو ما حصل بالفعل.

وفي كانون الثاني ١٩٧٨ دعيت إلى الجزائر لمعالجة الدكتور وديع حداد، وقد قيل آنذاك إنه مصاب بسرطان في غدة البنكرياس، فعالجته في المستشفى الحكومي في مدينة الجزائر ولم أجد أي علامات تدل على هذا التشخيص. عندما زرته للمرة الثانية في الجزائر كانت حالته المرضية تزداد سوءاً. وكان الشك بالتسمم يراودني دائماً. وتحدثت عنه مع صديقي هاني الهندي الذي كان موجوداً في الجزائر، وقلت له إني أريد أن آخذ عينة من شعر وديع معي إلى بيروت لأفحصها لأنني أعتقد أن حالته هي نتيجة التسمم بمادة الزرنيخ الذي تشبه عوارضه عوارض مرضه، ونستطيع التأكد من الأمر بفحص عيّنة من شعره. وقبل رحيلي بيوم ذهبت مساءً إلى المستشفى وقطعت خصلة من شعره وأخذتها معي إلى بيروت. وبالرغم من أننا لم نجد فيها أثراً لمادة الزرنيخ، إلّا أنني ما زلت إلى اليوم أعتقد أن سبب موته هو التسمم بمادة تعمل ببطء في الأحشاء، لكن الأمانة العلمية لا تسمح لي بالجزم في ذلك. وبعد مدة قصيرة نقل الدكتور وديع بطائرة خاصة إلى برلين الشرقية حيث توفي في ٢٨ آذار ١٩٧٨.

والعضو الثالث في حركة القوميين العرب وكتائب الفداء العربي هو الأستاذ هاني الهندي الذي تربطني به صداقة حميمة وازدادت سنة بعد سنة وخصوصاً بعد تفجير سيارته في ليماسول بجزيرة قبرص في ٣ كانون الثاني ١٩٨١. وقد بترت ذراعه اليسرى وكاد يستشهد لولا العناية الفائقة التي أولاه إياها جراحو وأطباء مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت التي نقل إليها.

وكان لي مع هاني الهندي «أبو محمود» جولات عديدة وخصوصاً عندما كان المسؤول العسكري للجبهة الشعبية في الأردن بعد نكبة ١٩٦٧.

ولا بد من القول في هذا المجال إن مشاعري كانت مشدودة إلى الجبهة الشعبية لإيماني أولاً بحق الفلسطينيين بتحرير وطنهم ولثقتي ثانياً بقادة هذه الجبهة من أمثال جورج حبش ووديع حداد وهاني الهندي. وقد عملت قدر المستطاع لمساندتهم، ولو بطريقة متواضعة، خصوصاً في الشؤون الطبية والصحية التي تتعلق بالجبهة.

ومن الأعضاء البارزين أيضاً الصديق والزميل الدكتور أحمد الخطيب، وهو من أبرز أركان المعارضة الكويتية، وقد شغل منصب نائب في البرلمان الكويتي حيث كانت له مواقف ساهمت في تحسين الأداء الديموقراطي في المجتمع الكويتي، كما كان للأصدقاء صالح شبل من فلسطين وحامد جوري من العراق وعلي منجو من الأردن الدور الكبير في استمرار حركة القوميين العرب.

والجدير بالذكر في هذا المجال أن أغنية القوميين العرب وجمعية العروة الوثقى التي انبثقت منها قد كتب كلماتها آنذاك الشاعر اللبناني سعيد عقل.

أما الاتجاه الثالث فكان من سماته نشوء الحزب الشيوعي اللبناني الذي استقطب العديد من الشبان المثقفين وعلى رأسهم صديقي وزميل الدراسة الدكتور منصور أرملي الذي يعدّ الآن من أشهر أطباء العيون في العالم. وكان الدكتور أرملي من أذكى الشبان وصاحب منطق مقنع. وقد ضحّى بالكثير، إذ دخل السجن في

بيروت، وتأخر سنة في كلية الطب التي تخرج منها بامتياز عال.

وأذكر أيضاً من قادة الحزب الشيوعي صبحي خوري نصار من الناصرة وعبد الحليم السعدي من العراق والمرحوم الدكتور عدنان هلسة من الأردن.

وفي كلية الطب أيضاً تمَّ تأسيس نواة حزب البعث، وعلى رأسه تلميذ الصف الدكتور جمال الشاعر والدكتور سعدون حمّادي الذي أصبح وزيراً للنفط في العراق والدكتور علي فخرو الذي تسلم وزارتي الصحة والتربية في البحرين، وهو الآن سفير في فرنسا، كما أذكر رجل الأعمال الكبير المرحوم عاطف دانيال.

كل هذا يدل على الغنى الفكري الذي تمتعت به الجامعة في تلك الحقبة. ففي صفي في كلية الطب اجتمع الدكتور جورج حبش القومي العربي، والدكتور منصور أرملي الشيوعي، والدكتور جمال الشاعر الذي كان من مؤسسي حزب البعث في لبنان وأصبح من قادة حزب البعث الأردني.

العلاقة بين الاتجاهات الأربعة، أي اتجاهات القوميين السوريين والقوميين العرب والشيوعيين والبعثيين، لم تكن علاقة وديّة. فبالنسبة إلى القوميين السوريين العروبة أفلست. والعلاقة بين حركة القوميين العرب والشيوعيين كانت عدائية، والخلاف قام حول قضية فلسطين، فبينما وقف الشيوعيون إلى جانب قرار التقسيم، عارض القوميون العرب القرار بشدة.

لكن جميع هذه الأحزاب والحركات، بالرغم من اختلافاتها

العميقة، كانت تلتقي كلها حول العلمانية، أي أن هذه الأحزابْ كانت علمانية بكل معنى الكلمة، ولم تكن فكرة الطائفية واردة أو مطروحة لديها.

والمؤسف والمحزن معاً أن جميع الأحزاب التي التقت على العلمنة وفصل الدين عن الدولة اضمحل نفوذها ودخلتها التيارت الطائفية والمذهبية على أنواعها. وفشلها هذا ساهم إلى حدّ كبير في بروز أحزاب طائفية صرفة كالتي نجدها في لبنان في يومنا الحاضر. فبينما كنا علمانيين قلباً وقالباً منذ خمسين سنة أصبحت هويتنا الآن طائفية ومذهبية.

فتطور العالم العربي الذي تتكلم عنه قيادتنا اليوم ما هو إلّا رجوع إلى العصور المظلمة.

الفصل الثاني

التكوين النفسي والعاطفي

من أهم العوامل التي أثرت في تكوين شخصيتي علاقاتي العاطفية ونظرتي إلى المرأة. وأذكر أنني عند بلوغي الخامسة عشرة كنت أتميّز بالخجل وعدم الثقة بالنفس. وكان منظري الخارجي يجعلني أرى نفسي شاباً بغاية البشاعة، لم يستطع ولن يستطيع أن يجتذب الجنس اللطيف. ففي يوم من الأيام، بينما كنت أسبح مع صديقة تعجبني كثيراً، حاولت مغازلتها، فأجابتني بالقول «يا منير، إنت ذكي ومهضوم بس يا ريتك كنت أحلى من هيك». وهذه الحادثة تركت أثراً كبيراً وجرحاً عميقاً في نفسي، استمر سنين عديدة. فاستشرت أصدقائي للخروج من هذا المأزق الأليم، وكان منهم كمال خولي الذي ساعدني كثيراً في تدعيم ثقتي بنفسي، وذلك بسلسلة من الجلسات التي كانت تمتدّ بيني وبينه إلى الفجر. وممّا قاله لي في إحدى هذه الجلسات أنه يجب عليَّ أن أتذكر دائماً أن لا أعتذر عن وجودي في هذه الدنيا. نصيحة قد تبدو سخيفة

للبعض لكنها زرعت فيَّ جرعة من الثقة بالنفس.

ولرفع معنوياتي نصحني كمال خولي بأن لا أندم على ما أفعله مهما كانت طبيعة هذا العمل، بل أن أندم على ما لا أفعله. وقد تطورت هذه النظرة إلى التفكير الإيجابي الذي أصبح من أهم دعائم تفكيري إلى الآن. وكان لكتاب نورمان فنسنت بيل «قوة التفكير الإيجابيّ»، الذي نصحني صديقي كمال بقراءته، الأثر الأكبر في تكوين شخصيتي التي ساعدتني على القيام بمهماتي المستقبلية. وكانت ردة فعلي على الجرح النفسي البليغ الذي أصابني من جراء عدم الثقة بالنفس كبيرة وعنيفة. فبعد أن لملمت ثقتي بنفسي وقويت شخصيتي، وكان عمري آنذاك حوالى تسعة عشر عاماً ثأرت من الماضي وذهبت إلى أقصى الحدود في علاقاتي مع الفتيات، كي أغطي فشلي السابق وأبرهن لنفسي أنني قادر على إغراء أية امرأة. فكنت أصطاد الفتيات للذة الاصطياد فقط، وكنت أدوّن صيدي كما كان الطيارون يدوّنون عدد الطائرات التي أسقطوها في الحرب العالمية الثانية.

ومن هذا الاختبار الحميم في العلاقة مع النساء تعلمت الكثير عن العقلية السائدة عند الرجال والنساء في تلك الحقبة من الزمن، أي من منتصف الأربعينيات إلى منتصف الخمسينيات. وقد توضّح لي بعد مرور نصف قرن على اختياري الأول، كم الفرق شاسع والتطور سريع بين عقلية النساء في الأربعينيات وعقليتهن في أواخر القرن العشرين. فالمرأة منذ خمسين سنة كانت معقدة التفكير في ما يخص العلاقات مع الرجل، وخصوصاً العلاقات الجنسية. فكانت تنظر إلى الجنس كأنه البعبع، واستسلامها إلى الجنس كان يعني أنها لا تتمتع بحصانة من الأخلاق، وأن هذه العلاقة تنزل بها إلى

الحضيض. ومن ناحية أخرى كانت هذه المرأة المتسلّحة بهذه الأفكار تصبو إلى علاقات غرامية أو جنسية، مما سبب لها صراعاً نفسياً ما بين رفضها للجنس كامرأة شريفة، وقبولها به كامرأة «بغي». وقد تبيّن لي من علاقاتي العديدة مع النساء في تلك الحقبة، أن الأكثرية الساحقة منهن حللن هذه المعضلة بإقناع أنفسهن أن هذه العلاقات تصبح مقبولة لديهن إذا كانت مبنية على الحب والغرام، مما يخفف وطأة الجرم أو مركّب الذنب عندهن. وقد توضحت هذه الفكرة عندي وعند العديد من الشبان في ذلك الزمان، فساهمنا في مساعدة النساء بإقناعهن بأن علاقاتنا بهن تتعدى الجنس وأن الحب والغرام هما الدافعان الوحيدان للممارسة الجنسية.

وقد تفاوت اقتناع النساء بنظرياتنا. فمنهن من وضعت شروطاً كالزواج أو عدم معاشرة نساء أخريات، بمعنى آخر أن يكون الشاب مخلصاً في علاقاته، ومنهن من تمسّكت بذريعة الحب بدون اقتناع حقيقي واستعملت هذه الذريعة لتغطية عقدة الذنب. وكنّا نحن، معشر الشبان، نستعمل كل الوسائل لإقناع الفتيات بغرامنا القاتل وحبنا الجامح من أجل نيل مآربنا. وعندما أتذكر اليوم ما كنا نقوله لهنّ يصيبني الخجل الشديد من سخافتي المزرية. كنا نردد الكلمات المعسولة التي اقتبسناها من الأفلام المصرية والأميركية. وعندما نقارن بين هذا السلوك التمثيلي من قبلنا وسذاجة الفتيات اللواتي قبلن بكل هذه السخافات من جهة، وبين الصراحة والجرأة التي نجدها اليوم عند الفتيات والشبان من جهة أخرى، نرى الفرق الشاسع ما بين هاتين الحقبتين من الزمن. فالأولى عنوانها الدجل والثانية، بالرغم من بعض مساوئها، ترتكز على الجرأة والصدق.

ومرت سنوات على هذا المنوال، أنتقل كالنحلة من زهرة إلى أخرى، مزهواً بالانتصار الكبير الذي حققته على ضعفي وعدم ثقتي بنفسي مفتخراً بالإيقاع بالنساء، امرأة بعد أخرى، بلا شعور بالحب ولا بالذنب، وكأني أنتقم من صديقتي الصغيرة التي حطّمتني في مسبح الجامعة الأميركية. وممّا كان يشعرني باللذة في ذلك الوقت سمعتي بين أصدقائي الشباب أنني «زير نساء» فقويت شخصيتي وامتلكت ثقة بالنفس لم أعهدها من قبل.

استمرت الحال على هذا المنوال إلى أن ذهبت إلى الولايات المتحدة الأميركية وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، وتعرفت إلى امرأة بعد أسبوع من إقامتي. وكانت هذه المرأة جميلة جداً وعلى قسط كبير من الذكاء. فبينما كنت أراقصها بعد العشاء وأضمها بشدة إلى صدري ابتدأت بالتمثيلية التي كنت أستخدمها في بيروت، فقلت لها إن عينيها تذكرانني بسمفونية تشايكوفسكي السادسة، وإنني كلما سمعت ضحكتها فإنني أسمع شوبان يعزف على البيانو، فبدأت تشهق من شدة الضحك، ثم قالت لي: «لماذا كل هذا الهراء فأنت ترغب في مضاجعتي وأنا أرغب في مضاجعتك أيضاً، فلا لزوم لكل هذه المقدمات السخيفة. فالمضاجعة هي كأكل السندويش، وعندما تريد أن تأكل الهمبرغر فأنت لا تستعمل أي ذريعة لأكلها سوى أنك جائع».

وكان وقع كلامها كالزلزال الذي هدم تركيبتي الفكرية بكاملها، وفتح لي آفاقاً لم أعهدها من قبل، وغسل كل الترسبات العقيمة التي كانت تكمن في نفسيتي، وطرد الخداع والمراءاة من عروقي. فنضجت بين ليلة وضحاها وخلعت ثيابي العقيمة التي طالما تباهيت بها طوال سنين. واقتلعت كل العيوب التي تراكمت في عقليتي

«الشرقية» من جذورها، وتحصنت بنظرة حديثة وسليمة في ما يخص علاقاتي بالنساء، ومن ثم علاقاتي بالناس بشكل عام. فلا لفّ ولا دوران ولا مماطلة، وكلمة الحق مهما كانت موجعة ألطف وقعاً على المدى البعيد من الكذب والمراوغة.

وبما أنني بصدد البحث عن العواطف والعلاقات مع النساء، فلا بد لي من القول في هذا المجال إنني برغم بلوغي سنّ السبعين، ما زلت أجهل تعريف العشق، والفرق بين العشق والحب. فالعشق كما ورد في التاريخ، في قصص روميو وجولييت، وجميل وبثينة ومجنون ليلى وغيرهم، هو شعور غريب عني لم أختبره طوال حياتي. والحب، الذي ما زلت أجهل مضامينه، شعور قد يدخل في أحشائي بين حين وآخر كالحمّى، ثم يزول. وقد فكرت ملياً في أسباب عدم مقدرتي على الإحساس بهذا الشعور النبيل، ووجدت أنني استعضت عنه طوال هذه السنين بتطوير إحساسي الإنساني وبشعور عارم بالاهتمام بالإنسان وبرعايته.

فأنا أسعد كثيراً لنجاح تلاميذي وأصدقائي وزملائي. فعندما أسمع أن أحد تلاميذي نجح أو تفوق في حقل الطب أشعر بسعادة عارمة. وعندما يصبح أحد أصدقائي ثرياً بعدما عانى الفقر أحسّ بنشوة النصر، وكأنني أنا الذي أصابه هذا الحظ الكبير. كما أن معرفتي بأن زملائي في الاختصاص نفسه قد برعوا واشتهروا بعملهم تزيدني غبطة لأنني فقدت كلياً معنى الحسد ومضامينه، الأمر الذي أدى إلى أن تكون علاقاتي طيبة مع الجميع، أصدقاء كانوا أم زملاء.

وكان اهتمامي الأكبر التركيز على مصلحة الإنسان وسعادته ورفاهيته بصرف النظر عن علاقتي به، سطحية كانت أم عميقة.

وهذا الشعور والاهتمام العميق بالإنسان جاء على حساب الأحاسيس بالحب أو العشق. ويجدر الذكر أن هذا المبدأ الذي اعتنقته منذ شبابي هو ركيزة نجاحي في الحياة، وخصوصاً في مهنتي الطب. فقلقي الدائم على صديق أو مريض يسيطر على كل مشاعري مهمشاً كل شعور آخر.

وأخيراً، وليس آخراً، ما زلت أجهل مدى تأثير الرغبة الجنسية على هذا الشعور بالحب.

فبالرغم من أنني حتى الآن لم أوضّح لنفسي معنى الحب ومضامينه كما يعرفها الآخرون، فقد «انغرمت» ثلاث مرات في حياتي، وسأحاول تفسير كل منها، مع العلم بأن شعور الحب حسب معرفتي وقراءاتي لا يتطلب أي تفسير، فهو شعور عفوي وعنيف.

كنت في الثامنة عشرة من العمر عندما أحببت للمرة الأولى، وكنت في ذلك الوقت أتخبط في عقد نفسية أتيت على ذكرها سابقاً، ناتجة من عدم الثقة بالنفس والشعور بأنني شاب غير مرغوب فيه وعلى جانب من القبح، كما أنني كنت خجولاً بطريقة مرضيّة. استهوتني فتاة فمنحتني شعوراً بالثقة رغم أنها لم تكن جميلة. وكنت أعاشرها في السر لعدم تجرؤي على تعريفها إلى أصدقائي الذين كانوا سيسخرون من ذوقي. فكنت أتمشى معها في الأزقة وفي ظلام الليل حتى لا يراني أحد. وكنت أنكر علاقاتي بها أمام كل أصدقائي وأردّ على استفسارهم بأنها ابنة الجيران، وأن العلاقة بيننا أخوية خالصة. فمن ناحية كنت سعيداً بأن ثمة شخصاً يحبني، ومن ناحية أخرى كنت تعيساً لأنني لا أستطيع أن أتباهى بهذه العلاقة الغرامية. وبقيت على هذه الحال مدة سنتين إلى أن

تعرفت إلى تيريز مالك وهي من أجمل الفتيات في رأس بيروت. واستمرت علاقتي مع الفتاتين، مع العلم أنني كنت أنكر الأولى وأباهي بالثانية لجمالها، فعرّفتها إلى كل أصدقائي وارتفعت أسهمي بينهم. فانتقلت من كوني الشاب «المسكين»، إلى أن أكون «دون جوان» أصدقائي. وكان ألمي كبيراً عندما تركت الأولى التي كانت لها معزّة كبيرة عندي، وبقيت مع الثانية التي ساهمت إلى حدّ كبير في تحصين شخصيتي.

ولا بد من القول إن علاقاتي بهذه الفتاة الجميلة كانت الدواء الشافي لكل العقد ومركبات النقص التي كنت أعانيها. فتغيّر «رقاص» شخصيتي من أقصى الضعف إلى ذروة الثقة بالنفس. ولهذا الشعور الجديد مظاهر أثرت على علاقاتي بالنساء تأثيراً بالغاً. فبالرغم من العلاقة الحميمة بيني وبين هذه الفتاة الجميلة، لم أستطع أن أكبت الموجة العارمة التي ولّدتها ثقتي الجديدة بنفسي. فرحت أعاشر النساء شمالاً ويميناً، وأصطادهن من أجل لذة الاصطياد وحدها. وكنت كما ذكرت سابقاً أتباهى بعدد الضحايا اللواتي وقعن في حبائلي، إلى أن تعرفت إلى هذه المرأة الأميركية التي علّمتني درساً لم أنسه في حياتي.

والمرأة الثالثة التي أغرمت بها، كانت آية في الجمال، ومن عائلة لبنانية عريقة وذات غنى فاحش. وكان السبب الأساسي لهذا الغرام طبيعة علاقتنا التي لم أعرف مثلها من قبل رغم خبرتي بالنساء والأمور الجنسية. لقد كانت امرأة طاغية في الحب وطاغية في الجنس. وكانت امرأة بكل معنى الكلمة لا هم لها سوى إرضائي وتلبية كل طلباتي. فتعلقت بها بطريقتي الخاصة إلى أن أنهكتني هذه العلاقة لأنني لم أستطع أن أبادلها الشعور العارم الذي كانت

تغرقني به. كانت هي تجد أنه من الطبيعي أن تستأثر بوقتي وجسدي وعاطفتي وأحلامي وتتوقع أن أبادلها بالمثل. وبتطور هذه العلاقة العميقة التي أخذت الكثير من جهدي قررت أن أسافر معها لمدة أسبوع لأمتحن علاقتي بها عن طريق المعايشة ليلاً ونهاراً لا عن طريق تمضية عدة ساعات في شقة مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع كما كنّا نفعل في السابق، فذهبنا إلى إسبانيا. وكانت دهشتي كبيرة عندما وجدت أنني بعد أول يوم لم أستطع تصور بقائي معها وجهاً لوجه فجهشت بالبكاء وبدأتُ أعد الساعات وأختلق الأعذار للرجوع إلى لبنان.

وبعد هذا الاختبار المرير انتهت العلاقة بيننا كلياً بعدما وجدت أنه لا نفع من استمرارها. ثم أغرمت هي بشاب غيري وما لبثت أن تزوجته. فكان فرحي كبيراً وراحتي أكبر لأن زواجها أنقذني من أي شعور بالذنب تجاهها.

ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن أعيش حياة زوجية سعيدة وهادئة ومستقرة، فلا جنون ولا إحساس جنسي مرهف، ولا تعاسة أو تعب أو قلق نفسي. ولا بد من القول إنه بالرغم من الاختلاف الجذري في نظرتنا أنا وزوجتي إلى العديد من الأمور فإني أجد بعد ثلاث وأربعين سنة من الزواج أن هذه العلاقة الزوجية هي أفضل ما حدث لي.

إذاً حياتي الغرامية، إذا صحّ التعبير، ابتدأت بفتاة حقنت فيَّ الثقة بالنفس إذ أشعرتني بأنني شخص مرغوب فيه وأخرجتني من طور الانكماش وضعف الشخصية، مما جعلني أقفز إلى الفتاة الثانية التي توّجت ثقتي بنفسي فوصلت إلى طور ملؤه الثقة والاعتزاز بالنفس.

أما العلاقة الثالثة فقد علّمتني أنني لا أستطيع أن أبادل المرأة أي نوع من أنواع الحب العنيف، واكتشفت أنني أفضل السعادة الهادئة على تمضية ساعات قليلة من السعادة الجنونية المغلّفة بتعب نفسي وجهد كبير.

ولا بد من ذكر مرحلة مررت بها دامت سنوات قليلة استهويت فيها النساء المثقفات اللواتي يتناولن طعام الفطور صباحاً مع سقراط، والغداء مع كيركيجارد، والشاي مع ألبرت كامو. وعايشت امتعاضهن الشديد لعدم فهمي موسيقى فاغنر وازدراءهن وضجرهن الواضح من أي حديث لا يتعلق بالماورائيات والميتافيزيقيات والفلسفة والشعر والفن. وكنّ ينظرن إليَّ بحزن وشفقة على جهلي المريع لعدم قراءتي ما كتبه دانتي في ملحمته الشهيرة، وجهلي أنه لولا مندلسون لما عرف العالم موسيقى يوهان سباستيان باخ. في البداية كنت أهاب وجودهن، وأصغي كالتلميذ المطيع لكل كلمة يتفوهن بها، وأستمتع بالدرر الثقافية التي يرششنها بلا حساب. بقيت على هذه الحال إلى أن اكتشفت بعد مخاض وعناء طويل أن العديد منهن يلبسن قشرة رقيقة من الثقافة المعلّبة، لا مبرر لها سوى التفنيص والإغراء. أمّا اللواتي لا يسعني سوى الاعتراف بعمق ثقافتهن فلا علاقة لهن بالواقع، ولم أستطع الاستمرار في تحمّل تصرفاتهن الغريبة. وأشكر ربي ألف مرة لعدم إدماني هذا النمط وتخلصي من كابوس الثقافة من أجل الثقافة. وأهلاً بالسخافات المريحة والحديث عن ملذات الأكل والشرب والمرح والرياضة.

الفصل الثالث

من أنا؟

حاولت عبثاً التهرب من كتابة هذا الفصل لا لخوفي من التعري أمام الناس بل لجهلي، بعد مضي سبعين عاماً، الجواب عن السؤال: من أنا؟ فقبل أن أعطي العنوان الحالي لهذا الكتاب كان العنوان الأصلي «الصندوق الأسود»، نسبة إلى صندوق الطائرة الأسود الذي يسجّل محادثات الطيارين فيما بينهم ومع برج المراقبة، كما يسجّل وصفهم لمشاكلهم ومتاعبهم في الطيران. ويبقى الصندوق الأسود الشاهد الوحيد إذا ما سقطت الطائرة. فأنا أحاول فتح صندوقي الأسود مفتشاً فيه على أعمق ما يحويه من أسرار. وقبل أن يتهمني القارىء بأنني كتبت هذا الفصل تبجحاً بعمق تفكيري أو رزانة فلسفتي متوسلاً أن يدخلني المثقفون إلى ناديهم المغلق، أقول إن الحقيقة أبسط من ذلك، وهي أني بصدق وإخلاص وبساطة وعفوية أقول إنني ما زلت أجهل من أنا!؟

هناك ثوابت عن نفسي أعرفها تماماً. فأنا لبناني، طبيب وأستاذ في

كلية الطب على درجة لا بأس بها من الذكاء وسرعة الخاطر وروح النكتة والسخرية من نفسي ومن الآخرين. أنتقد دون أن أخاف أي إنسان مهما علا شأنه ولا أحسب الخسارة والربح عندما أنتقد. صريح في آرائي، سواء كان ذلك في موضوع اختصاصي الطبي أو في علاقاتي الاجتماعية أو في آرائي السياسية. وصراحتي هذه أكسبتني الكثير من السعادة والطمأنينة كما أنها خسّرتني صداقة أصحاب القرار، سواء في المجال الجامعي أو في القطاع العام. فكلهم يحبونني شرط أن أكون بعيداً عنهم وعن القرار، وصدق المثل العام: «الله يسعده ويبعده».

قلت إني جريء فكرياً لكنني لست جريئاً جسدياً. ففي أثناء الحرب، كان الخوف ينتابني أكثر من غيري عند القصف والقتال. وفي الوقت نفسه، كنت أكتب وأتكلم بكل جرأة عن تجاوزات المسلحين، سواء أكانوا من الفلسطينيين أم من الميليشيات الأخرى الموجودة في لبنان. ولم يرد في ذهني يوماً أن أصمت خوفاً من الانتقام. وكنت مؤمناً أشد الإيمان بأنني ما دمت على حق فما من رادع يردعني عن النقد. كنت أقول كلمتي مهما كانت كلفتها.

وثمة ثوابت أخرى تعلمتها عن نفسي مع مضي السنين، منها قلة صبري وخصوصاً على السخف، سخف شخص أو مقالة أو رأي أو رسم أو غير ذلك. وقد ازدادت قلة صبري سنة بعد سنة إلى أن أصبحتْ مرضاً ينتابني فجأة فتتغير ملامحي ويبدو عليَّ القنوط، وتصيبني أعراض كألم الرأس، والغثيان، والقرف. فالديبلوماسية ليست من شيمي، والمسايرة أبعد الصفات عني، والضجر والانزعاج يظهران عليَّ بكل وضوح إذا أجبرت على سهرة لا أحبها أو على حضور زفاف، أو مناسبات اجتماعية أخرى. كل هذا معروف لديَّ

ولدى كل من يعرفني. أما إذا كان الموضوع يتصل بمريض يتطبب عندي، فالتغيّر في شخصيتي يظهر بوضوح، إذ أنقلب إلى إنسان هادىء يتحمل تحمّلاً لا حدود له. فمنير شمّاعه الرجل النافد الصبر والمتململ اجتماعياً يصبح مستمعاً واعياً وصبوراً ومتفهماً ومهتماً بأسخف شكاوى المرضى وأبسطها، فيتحلّى بالصبر ويستفيض في التفسير والتشجيع والدعم المعنوي. وقد يصح القول في هذا المجال أنني أتنقل ومن دون جهد، من شخصية إلى أخرى. فتارة أكون الدكتور جيكيل وتارة أصبح المستر هايد. ففي الوقت الذي تسمع فيه أطيب الصفات عني من مرضاي، تسمع من الآخرين أني رجل متململ، قليل الصبر، متكبّر ومزعج.

ومن أهم الثوابت التي تعلمتها عن نفسي والتي كلّفتني الكثير من المتاعب، فضلاً عن الخسارات المادية، جهلي الكامل في تقييم الناس. وقد فكرت ملياً في أسباب هذا الجهل ووجدت أن السبب الوحيد المقنع لي هو إيماني بأن البشر يتصرفون بالطريقة نفسها التي أتصرف بها. فلا لفّ ولا دوران ولا كذب أو تدجيل، ولا تمثيل أو مراوغة. فإن قال لي شخص إنه بحاجة إلى مساعدة مهما كان نوعها، مادية كانت أو معنوية، لا أشك في قوله أو في نيّته. وقد احترقت مراراً على مدى السنين ولم أتعلم، بالرغم من خيبات الأمل المتكررة، كيف أصحح هذا الاعوجاج. فكم من شخص أعطيته كل ما أستطيع وكانت النتيجة طعنة في الظهر، إلى أن قرأت يوماً قولاً للحكيم الجاهلي أكثم بن صيفي جاء فيه: «حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة». فكتبت هذا الكلام البليغ ووضعته في برواز في عيادتي ليذكرني دائماً بالتفكير ملياً قبل التصرّف بالإيجابية العارمة التي أتمتع بها.

هذه هي الثوابت التي أعرفها عن نفسي، أما الباقي فما زال في المجهول. والأسئلة الكبرى التي تدور دائماً في مخيلتي هي:

١ ــ هل أنا مؤمن بالله أم لا؟

٢ ــ هل أنا مثقف أم لا؟

٣ ــ هل أنا إنسان طيّب ومحبّ وكريم أم أنّ هذه الصفات قشور تغطي بعض العيوب لديَّ؟

٤ ــ هل لي ثمن أُشرى به وأُباع؟

أسئلة ما زالت الأجوبة عنها غامضة في ذهني. فبالنسبة إلى الإيمان أجد أنني أتأرجح بينه وبين الإلحاد. لقد أوصلني العلم إلى القناعة بأن ثمة قوة كبيرة تتحكم في الكون وفي الإنسان. فعظمة جسم الإنسان وتركيبته تقودني إلى أن خالقه، وسمّه ما تشاء، قوة جبارة لا نستطيع تجاهلها. ولم أستطع يوماً أن أقتنع بأن هذه القوة التي يسميها المؤمنون قوة إلهيّة تفسّر كل ما يحدث للإنسان. أذكر أن امرأة فقيرة طيّبة جاءتني ذات يوم من بلدة القماطية لتتعالج عندي فكلّمتني عن ابنها الوحيد الذي أرسلته إلى بريطانيا ليدرس الفيزياء النووية والذي نال شهادة الدكتوراه بتفوق. قال لي إنها وفّرت له المال ليكمل دراسته بعملها خادمة تغسل الصحون في مطعم بسيط، وأشارت إلى يديها باعتزاز وفخر قائلة أن الدكتوراه التي حازها ابنها جاءت من وراء جلي الصحون القذرة. وبعد أسبوعين من زيارة هذه المرأة لي وصل ابنها من بريطانيا ليتسلم وظيفة كبيرة في لبنان، فجاء معها إلى العيادة لأتعرف إليه. وخلال الحديث قال لي: «ما دمت أنا عندك يا حكيم أخبرك أني أصبت برشح وقذفت قليلاً من

الدم». فأجبته أنه من الأفضل أن تجري فحصاً شعاعياً للرئتين. وكانت النتيجة أنه مصاب بسرطان في الرئة، وما لبث أن فارق الحياة. فما هي الحكمة عند الله العلي العظيم الغفور والمحب من هذه المأساة؟ سؤال لم يقنعني المؤمنون في إجابتهم عنه.

وكل ما أودّ قوله في هذا المجال هو أنني لا أملك الإيمان الكافي لأعلل هذه الحادثة وأفسّر السرّ الإلهي الذي يمكن أن يجلب كارثة كهذه على الشاب ووالدته.

هل أنا مثقف أم لا؟ قد خطر لي أن يكون عنوان الكتاب «مذكرات مثيقف لبناني» لا للنكتة أو السخرية، بل لعدم تمكني من تصنيف نفسي في خانة المثقفين. فإذا قرأت سلسلة المحاضرات التي ألقاها الدكتور إدوار سعيد في بريطانيا أجد نفسي خارج هذا التصنيف. فالعالِم أو الطبيب أو المهندس مهما علا شأنه وعظمت إنجازاته وكثرت اكتشافاته لا يعد مثقفاً. أما أستاذ الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو العلوم الاجتماعية الذي يجلس في مكتبه يطالع يوماً بعد يوم فإنه يكتسب بطاقة مجانية لدخول نادي المثقفين.

فلويس باستور وكلود برنارد وأينشتاين وغيرهم من العلماء الذين غيّروا وجه الدنيا ورفعوا شأن الإنسان باختراعاتهم واكتشافاتهم، ليسوا سوى علماء لا يمتّون إلى الثقافة بصلة. أما ألبير كامو وجان بول سارتر وإدوار سعيد وجايمس جويس ونعوم شومسكي وغيرهم من الكتّاب والفلاسفة والمؤرخين فهم مثقفون. غير أنهم، مع احترامي وتقديري لكتاباتهم القيّمة، لم يغيّروا في مجرى التاريخ كما فعل العلماء الذين ذكرتهم. لذا أجد نفسي حائراً ومتسائلاً: ما هو الأهم؟ الثقافة كما يحدّدها جرانتشي وبندا أي التفرغ الكلي

لتحليل الأسئلة الفلسفية والاجتماعية ومعالجتها بجرأة وتجرد، أم العلم الذي من شأنه أن يرفع مستوى الإنسان ويؤمّن رفاهيته ليصبح أكثر مناعة في مجابهة الصعاب؟

وفي سبيل الذمة العلمية لا بد لي أن أقرّ بأنني لم أفهم العديد من الكتب التي قيل لي إنها درر في الثقافة والأدب، وإنه من المفروض على المثقف أن يقرأها. فالبرغم من كل محاولاتي الجدية لقراءة شعر الصديق العزيز أدونيس ونثره، لم أفهم يوماً ما كتبه، ممّا زعزع ثقتي بنفسي وبقدراتي الذهنية إلى أن اكتشفت أن العديد من أصدقائي وممّن يدّعون الثقافة أيضاً لم يفهموا ما قصده أدونيس. كما أنني حاولت بكل عناد وإخلاص وبمساعدة القاموس الفرنسي أن أفهم ما كتبه بروست في كتابه الشهير «في البحث عن الوقت الضائع». ابتدأت بالجزء الأول منه، وبعد جهد جهيد وصلت إلى الصفحة ٥٨ منهك القوى وبدون أن أفهم ما يريد بروست قوله سوى أنه كان تعيساً حين لم تقبّله والدته. ولم أجد سبباً يدفعني إلى متابعة قراءة الكتاب. شعرت بمركّب ذنب وخصوصاً عندما قيل لي إن هذه المجموعة لبروست هي أهم ما كتب في القرن العشرين.

وأخيراً، وبالرغم من عدم اهتمامي بالتصنيف ومن قلة شغفي بدخول هذا النادي الخاص فإنني لا أجد مبرراً يجعل المثقفين يوصدون الأبواب أمام دخولي برجهم العاجي.

وهذا يقودني إلى صفتي المفضلة. فأنا فضولي ومحب للاستطلاع. كل شاردة وواردة تهمني. ولذا تراني أهتم بالأدب العربي. والمتنبي شاعري المفضل. والحكم والأمثال في شعره من أعمق ما كتب. أما الفخر أو بالأحرى «التفشيط»، إذا سمح لي الشاعر، فلا أجد فيه

منافساً له. كما أني أحب الشعر اللبناني باللغة العامية وبالأخص ما كتبه ميشال طراد. وأحب الرسم وألاحق سِيَر الفنانين من عصر النهضة إلى زمن الانطباعية الفرنسية، وأقرأ التاريخ وأتلذذ بمسيرات صانعي التاريخ والقادة العسكريين. وأهوى الموسيقى الكلاسيكية، وقد درست النوطات ونسيتها ووجدت أن لذة الاستماع لا تحتاج إلى معرفة النوطات، وما زلت مغرماً بالأوبرا. وقد تعلمت اللغة الإيطالية لأفهم ما ينشده المغنون، كما أني معجب جداً بالموسيقى الكنسية ولحن الأذان. ومنذ صغري كنت أستمع إلى الموسيقى مع معلمي الكبير ومرشدي الثقافي أمال سكر الذي كنت أقضي معه ساعات طويلة كل يوم سبت لأستمع إليه وإلى شرحه في مواضيع عدة، منها الأدب والفلسفة والتاريخ والموسيقى. وقد أكّد لي أمال سكر أنني أملك أذناً موسيقية لا بأس بها وأنني أفهم الموسيقى فهماً جيداً، ولكنني ما زلت في بداية الطريق ويلزمني الكثير لاستيعاب موسيقى فاجنر. وما زلت إلى الآن، وبالرغم من الجهد الكبير الذي بذلته، لا أفهم هذا الموسيقار الألماني الكبير ولا أنسجم معه. ولديَّ اهتمام كبير بالنبيذ وصناعته؛ ولقد اشتركت في مجلات عديدة خاصة به. واقتنيت وقرأت كتباً عن النبيذ وزرت القصور التي تصنع النبيذ في فرنسا وفي الولايات المتحدة. وأنا ملمّ أيضاً بالعديد من أنواع الرياضة. فأنا أسبح منذ الطفولة، وقد مارست جميع الرياضات البحرية كالتزلج على الماء والغطس، وكنت من رؤساء نادي الغطس في الجامعة الأميركية. أهوى صيد السمك في أعماق البحر، وقد مارست هذه الهواية في لبنان وأوروبا واصطدت يوماً مع الصديق هاني سلام في سردينيا سمكة وزنها اثنان وثلاثون كيلوغراماً. وتعرفت إلى أصدقاء كثر في الغطس، منهم أديب شرتوني وداني شمعون. وقد حصلت لي مع داني حادثة لا أنساها أبداً. فقد حام حوالينا مرة كلب بحر يزيد طوله على المترين ونصف

المتر، وكنا نصطاد قرب الحمام العسكري في بيروت. وفي أوائل السبعينيات اقتنيت قارباً مطاطاً للصيد ووضعته في الحمام العسكري بعدما أذن لي العقيد البحري إميل لحود بذلك. كنا نغطس معاً، وهو من أمهر الغطّاسين في لبنان وأهمهم. وما زالت صداقي مع فخامته مستمرة إلى الآن.

تعلمت الغولف وصرفت ساعات طوالاً في الحقل، غير أني اكتشفت بعد عدة سنوات أن المستوى الذي وصلت إليه لا يليق بهذه الرياضة الأنيقة. كما أنني ألعب التنس وأركب الخيل. وتعلمت قفز الحواجز على حصان أميركي نشأت بيني وبينه صداقة حميمة. وكان حزني كبيراً عندما اضطررت إلى إرساله إلى دمشق كي يكون في مأمن من القصف على المدينة الرياضية إبان الحرب القذرة.

ومن رياضاتي المفضلة التزلج على الثلج الذي بدأت بممارسته وأنا في السابعة والأربعين من العمر. ومنذ ذلك اليوم ما زلت أذهب إلى فرنسا مرتين كل عام لأتزلج. وبالرغم من ممارستي هذه الرياضات كلّها، إلّا أنني لم أتقن منها إلّا السباحة. وقد أسهمت هذه النشاطات إلى حدّ بعيد في تحقيق سعادتي وجعلت مني شخصاً يتفاعل مع أي مجتمع مهما تنوعت خصائصه.

أما السؤال الثالث الذي ما زال يراودني فهو: أي إنسان أنا؟ هل أنا حقيقة طيّب ومحبّ وكريم كما أبدو أم أن كل هذه الصفات الحميدة جيّشت كآلية لتغطية ضعف في شخصيتي ولتبديد خوفي من أن أكون منبوذاً ومرفوضاً في مجتمعي؟

أثير كل هذه الأسئلة لا لتفجير قنبلة بسيكولوجية أو لإثارة رغبة القارىء حول أعمق سرّ في صندوقي الأسود، بل لانشغالي مدة، وخصوصاً في بداية حياتي المهنية، بهذه الأسئلة. وكان لجدية اهتمامي بها ولمعرفة حقيقة من أنا أن استعنت إبان وجودي في بوسطن بأحد كبار أساتذة التحليل النفسي في جامعة هارفرد. كنت أقابله ساعة في الأسبوع لمدة سنة كاملة وأتحدث إليه عن نفسي وعمّا يدور في خاطري، توصلت بعد سنة من هذه المقابلات إلى أن أعرف منير شمّاعه بصورة أوضح، واكتشفت عندها أن هذه الصفات الحميدة التي عددتها وتسلحت بها قد تكون مكتسبة تعمل كآلية تعويضية لاجتذاب محبة الناس وتفادي غضبهم وانتقاداتهم، وذلك ربما لضعف متأصل في تركيبتي النفسية. كل هذا يقودني إلى الشك في كل شيء إيجابي عندي. فلا ذكائي الحاد كما أدّعي يهمّني، ولا نجاحي في مهنتي وفي مجتمعي أغراني. فالسخرية والاستهزاء بكل هذه الأمور جعلا مني رجلاً لا يحب الأضواء بل يسخر منها ولا يسكر بالنجاح ولا يعظّم إنجازاته ويباهي بها.

والسؤال الرابع والأخير الذي طالما بحثته مع أصدقائي ولم أجد له جواباً مقنعاً هو: هل للإنسان ثمن يشرى به ويباع؟ وهل لي أنا ثمن أم أنني حقاً أغلى من أن يكون لي ثمن؟

في سنة ١٩٥٨، وبعد مرور سنة على ممارستي الطب في عيادتي الخاصة، عيّنت طبيباً للسفارة العراقية في بيروت. وبعد ثورة عبد الكريم قاسم صدر قرار يقضي برجوع كل المواطنين العراقيين إلى العراق باستثناء الذين لديهم أسباب اضطرارية للبقاء، ومن بينها الأسباب الصحية، على أن يتم التثبت منها من خلال تقرير طبّي من الطبيب المعتمد لدى السفارة العراقية.

وجاءتني يوماً سيدة عراقية تبدو عليها دلائل الثراء والأرستقراطية وطلبت مني تقريراً طبياً يخوّلها البقاء في لبنان. فقلت لها بكل احترام: «سأعطيك التقرير بعد الفحص إذا وجدت سبباً صحياً يدعو إلى ذلك». فألحت عليَّ قائلة إنها تريد التقرير ولا لزوم للفحص، فأجبتها الجواب نفسه، فكرّرت طلبها مرات إلى أن انتابها الغضب الشديد ففتحت محفظتها السوداء الأنيقة وتناولت منها رزمة من أوراق المئة ليرة وعدّت منها عشر أوراق رمتها على طاولتي قائلة: «اكتب التقرير». وكان جوابي بكل هدوء وبعفوية بريئة: «الظاهر يا سيدتي أن سعري أعلى من هذا». فلملمت السيدة الأوراق بغضب وذهبت. والجدير بالذكر في هذا المجال أن مدخولي الشهري آنذاك كان لا يتجاوز ألف ليرة، وأنني كنت مديوناً لزوج شقيقتي بعشرة آلاف ليرة ثمن أثاث للبيت.

وبعدها بثلاث سنوات، وكنت آنذاك طبيباً للسفارة السعودية في بيروت ومقرباً من العائلة المالكة السعودية، جاءني صديق سعودي له مركز مسؤول وكبير في إحدى الوزارات وقال لي: «جئتك يا دكتور لأني أريد تقريراً منك يفيد بأنني لا أتعاطى الكحول». وكان هذا الصديق من مدمني المشروبات الروحية. فقلت له بكل بساطة: «إذا كتبت لك هذا التقرير فأنت ستصنّفني من الآن فصاعداً في منزلة الكذّابين. فهل تقبل أن تتعاين عند طبيب كذاب؟ وهل تحترم الطبيب الكذاب؟»، عندئذٍ سرد قصته مفصِّلاً ومطوِّلاً وقال لي إن مستقبل مركزه في الوزارة رهن بهذا التقرير. وفي اليوم التالي، وأذكر أنه كان يوم السبت، وهو يوم أقفل فيه العيادة، جاءني صديقي وبيده حقيبة سامسونايت وفتحها وإذا هي محشوة بالدولارات الأميركية الجديدة، مما ذكّرني بالأفلام البوليسية حيث تجري مبادلة أكياس الهيروين بالدولارات فقلت له: «لا أستطيع

كتابة التقرير بالصيغة التي تريدها لكنني سأكتب لك تقريراً يفيد بأنك كنت تتعاطى المشروبات الكحولية لكنك توقفت عن ذلك». فأغلق الحقيبة بما فيها وأخذها وقدم لي في اليوم التالي ساعة عليها رسم الملك فيصل.

سردت هاتين الواقعتين لا على سبيل التسلية بل لأطرح السؤال الأساسي الذي يخطر في بالي: هل للإنسان ثمن؟ فلو أعطتني السيدة العراقية آنذاك عشرة آلاف ليرة بدلاً من الألف، فهل كان موقفي سيتغير؟ ولو أعطاني الديبلوماسي السعودي نصف مليون دولار، فهل تنهار مناعتي؟ أعلم كل العلم أن لكثير من الناس أثماناً، وقد تكون زهيدة أحياناً. لكن الذين يدّعون العفة مثلي، هل هم فوق الأثمان مهما علت، أم أنّ ثمنهم، كما قلت للسيدة العراقية، أعلى من الثمن المعروض؟ سؤال لا جواب عندي عنه. هذا كل ما وجدت في صندوقي الأسود، ولعله ما زال يحتوي على أسرار قد يتيح لي الزمن المتبقي أن أكتشفها.

الفصل الرابع

في المملكة العربية السعودية

دخلت المملكة العربية السعودية مرتين:

المرة الأولى كانت سنة ١٩٥٢ عندما عملت طبيباً في شركة الأنابيب الأميركية (تابلاين) لسبب واحد هو جمع المال كي أتمكن من الذهاب إلى الولايات المتحدة للتخصص فيما بعد. هذه المرحلة دامت سنة قضيت معظمها في محطة رفحه التي تقع على مثلث الحدود السعودية ـ الكويتية ـ العراقية، وهي منطقة صحراوية قاحلة لا حياة فيها سوى المحطة التي تضخّ البترول. فبعد استخراج البترول من الآبار في المنطقة الشرقية من المملكة يضخ السائل الأسود عبر عدة محطات أذكر منها القيسومة ورفحه التي عملت فيها، وبدنه أو عرعر، وهي مركز الإمارة، إلى أن تصل إلى محطة طريف قرب الحدود الأردنية، ومن ثم تمر الأنابيب في سورية ثم إلى لبنان حيث تصب في مصفاة الزهراني جنوبي مدينة صيدا. ولن

أطيل الحديث عن البترول أو تصنيعه ونقله، بل كل ما أريده هو تسجيل بعض الانطباعات والكلام عن تجربتي في هذه المرحلة. ولعلّ أهم اختبار لي في المملكة هو مواجهتي، وللمرة الأولى، للعنصرية أو التمييز بين إنسان وآخر. وكما ظهرت لي الطائفية في لبنان للمرة الأولى إبان الحرب العالمية الثانية واجهت العنصرية في المملكة العربية السعودية. وأسرع إلى القول أن العنصرية لم تكن من صنع الشعب السعودي بل كانت من صنع الجالية الأميركية التي كانت تتحكم في المحطة وتدير شؤونها. أما الباقون من سعوديين ومصريين ولبنانيين وفلسطينيين وغيرهم من شعوب الدرجة الثالثة فكانوا كلهم ضحايا هذه العنصرية البشعة. وعلى سبيل المثال، فقد قسّم الأميركيون كل شيء في المحطة إلى أميركي وغير أميركي. فبيوت السكن الأميركية كانت أنيقة ومزوّدة بأحدث أنواع التبريد. أما مجمعات السكن التي يعيش فيها الآخرون فكانت بمثابة ثكنات مزوّدة بالمراوح التي تشبه محرّكات الطائرات. وكان للأميركيين مطعم خاص ولنا مطعم أدنى درجة منه. وفي المحطة مسبح يسمح للأميركيين فقط بالسباحة فيه، ويقف حوله الموظفون العرب ليمنعوا إخوانهم العرب من الدخول إليه. ومهما علا شأن الموظف غير الأميركي، سواء أكان طبيباً أم مهندساً أم موظفاً كبيراً، فالمعاملة واحدة وهي تخضع لمعيار واحد: إنه غير أميركي. ففي المستوصف الذي كنت أعمل فيه قرر المهندس الأميركي الذي صمّمه إنشاء عيادتين، واحدة للأميركيين وواحدة للآخرين. وكان الطبيب الذي خلفته في المحطة قد سمّى العيادتين العيادة النظيفة والعيادة القذرة. ولهذه التسمية سبب عملي ومنطقي. فهناك من الموظفين، وخصوصاً أولئك الذين يعملون في الزيوت لتصليح المضخات الكبيرة، يأتون بثيابهم المطلية بالزيت والشحم، وكان هؤلاء في معظمهم من الأميركيين. أما الفئة الأخرى التي تضمّ موظفي

المكاتب والمحاسبة فكان معظمهم من العرب الذين يأتون بثيابهم النظيفة إلى العيادة. إلّا أن الأميركيين أصرّوا على تصنيف آخر. فالموظف الأميركي مهما بلغت قذارة ملابسه ومهما كثر الزيت والشحم الأسود على وجهه، على الطبيب أن يعالجه في العيادة الفخمة، أما العربي، ومهما علا شأنه وبرزت أناقته، فعليه أن يتعالج في العيادة التي يتعاين فيها البدو وسكان المنطقة وكل من هو ليس أميركياً.

وكان لهذه العنصرية البشعة وقع كبير عليَّ. فبعد السنين الطويلة التي قضيتها في الجامعة الأميركية في بيروت حيث تشربت القيم الإنسانية واطّلعت على حقوق الإنسان ونبذت كل أنواع التفرقة، وجدت نفسي وجهاً لوجه مع أبشع أنواع التفرقة، ولم يمضِ على بقائي في المحطة إلّا أسابيع حتى بدأت بحركة شبه ثورية مع زملائي اللبنانيين والفلسطينيين من مهندسين وميكانيكيين ومحاسبين وغيرهم، موضحاً لهم رفضي القاطع لهذه الحالة وعدم قبولي بالبقاء في هذه المحطة ما دامت التفرقة قائمة. فوضعنا خطة للعمل بدءاً بالحوار مع المسؤولين وتصعيداً حتى الامتناع عن العمل. ولم يغفل عن ذهني أن لهذه القرارات محاذير كثيرة قد يكون ضررها أكبر من منفعتها. ولذا أظهرت لكل الشباب المقيمين في المحطة تفهمي إذا امتنع البعض منهم عن الدخول في هذه الحركة، فكلنا نعمل في الشركة من أجل جمع المال لمساعدة أهلنا، وأي تصعيد قد يجعلنا عاطلين من العمل، فالقرار بالمشاركة مسألة شخصية ولا يعرف حجم عواقبها سوى الشخص نفسه. أذكر اجتماعاً حاسماً جرى بيني وبين الموظفين اللبنانيين والفلسطينيين بعد أن فشلت كل محاولات الحوار مع المسؤولين وبعد أن استنفدنا كل الطرق الديبلوماسية، فقلت لهم إنني اتخذت قراراً بترك العمل وسأذهب

صباحاً إلى مطار رفحه لأستقل الطائرة إلى بيروت. وكان لكل محطة من المحطات الأربع مطار تهبط فيه الطائرة ثلاث مرات في الأسبوع آتية من بيروت إلى الظهران، كما تقلع منه الطائرة ثلاث مرات من الظهران إلى بيروت. وفي ذلك اليوم حزمت أمتعتي وذهبت إلى المطار لأستقل الطائرة وإذا بمعظم الموظفين اللبنانيين والفلسطينيين مجتمعون ومعهم أمتعتهم ليستقلوا الطائرة معي إلى بيروت. ولما هبطت الطائرة قادمة من القيسومة رآنا المستر فيستر مدير المحطة الذي كنّا قد تحاورنا معه عبثاً في تحسين أوضاعنا، فلم يصدّق ما رآه بل ظنّ أنها مناورة وخدعة إلى أن بدأنا بالصعود إلى الطائرة أمام هتاف وحماسة الموظفين جميعاً. ومما زاد الحماسة قول أحدهم: «إذا كان الدكتور منير الذي يتقاضى أكبر معاش بيننا، وكان معاشي آنذاك ألفاً وستمئة ريال سعودي، مستعداً أن يضحّي بمعاشه فلم لا نضحّي كلنا بمعاشاتنا الزهيدة، والله يدبر». فعلا الصوت وصعدنا جميعاً إلى الطائرة إلى أن جاء مدير المحطة متوسلاً ووعدنا بمراجعة كبار المسؤولين في الشركة من أجل تحسين أوضاعنا، فقبلنا بهذا الشرط. وبعد مدة وجيزة بدأت الأمور تتحسن تدريجياً، فلا مستوصف أميركياً ولا كافيتريا أميركية. فكل موظف يعامل حسب رتبته ولا علاقة للونه أو عرقه أو جنسيته بأي تمييز. فالعنصرية التي طالما قرأنا عنها، والتي يتغنى الغرب المتحضر بمحاربتها، لم تكن ولن تكون يوماً من تراثنا العربي بل هي وليدة الغرب الذي استعمر وقهر وأباد بعض الشعوب. فتاريخ الهنود الحمر في أميركا، والشعب الأزتيكي في أميركا الجنوبية، وكل الشعب الأسود في القارة الأفريقية، والمجازر الذي قام بها الصهاينة في فلسطين ولبنان، وكل الذين ماتوا قهراً أو جوعاً أو سجناً أو ماتوا عبيداً عند المستعمر أمثلة ساطعة على العنصرية البشعة التي تمارسها الشعوب التي تدّعي الدفاع عن حقوق الإنسان.

أما الحياة الاجتماعية في المملكة في أوائل الخمسينيات فكانت تختلف عمّا هي عليه الآن. فما نشاهده اليوم من غنى وعمران وقصور وطرقات وجسور وغيرها مما يسمى بالتقدم والرقي لم يكن له أثر.

فالرياض، مثلاً، التي زرتها سنة ١٩٥٢، كانت مدينة صغيرة فيها على ما أذكر فندقان أحدهما يدعى فندق اليمامة، وتسرح في غرفه الجرذان وتمرح. وطرقات الرياض لم تكن معبّدة، وبيوتها أكثرها من اللبن، والتبريد فيها بالمراوح. وقصر الملك عبد العزيز لم يكن بالضخامة التي نراه عليها اليوم، لا هو ولا القصور الأخرى التي يملكها أثرياء المملكة. وكان للطبيب في تلك الأيام مكانة كبيرة عند السعوديين. فأمير المنطقة التي عملت فيها وهو من آل السديري كان يولم لي في داره في عرعر. وأمير المحطة التي أعمل فيها كان صديقاً حميماً حاول مراراً أن يكرمني بسكب كأس من الويسكي مع الطعام، لكنه كان يعجب كل العجب عندما كنت أرفض تناول الكحول فيقول لي: «أنت رجل متعلم ومثقف وتتكلم عدة لغات وطبيب بارع، ولا تشرب الويسكي!!!»، وكأنّ المشروبات الروحية في ذهنه مقرونة بالعلم والثقافة والتقدم.

ومن طرائف الحوادث مع هذا الأمير أنني طلبت منه يوماً أن يرشدني إلى شخص يعلّمني قيادة السيارة، فللطبيب في المحطة سيارة خاصة يستعملها. ولم يصدّق الأمير أنني لا أجيد قيادة السيارات. وقال لي بالحرف الواحد: «الطبيب الذي نجح في شهادة الطب لا يلزمه امتحان لقيادة السيارات». ومنحني على الفور شهادة استبدلتها في بيروت بشهادة لبنانية، وبعد نصف قرن استبدلت هذه الشهادة اللبنانية بشهادة فرنسية. ولم أحتج إلى امتحان في

قيادة السيارات إلّا في الولايات المتحدة الأميركية.

الحياة في محطة ضخ البترول في الصحراء السعودية مملة جداً، باستثناء بعض التجارب الغنية التي عشتها. فيومي لحسن الحظ كان مليئاً بالعمل، إذ كنت أعاين حوالى ستين مريضاً يومياً، أكثرهم من البدو القاطنين بجوار المحطة في خيام بسيطة. وجرت العادة أن أزورهم مساء كل يوم لأشرب اللبن مع التمر، ثم القهوة، وأستمتع بحديثهم وبلهجتهم التي بدأت أفهمها بعد مدة قصيرة. وكلّ ما يقال من أوصاف عن البداوة من طيبة وسذاجة وكرم شاهدته بأم العين وعشته. فالابتسامة والرضى وحسن الاستقبال لا تغيب عنهم. ومما وطّد علاقتي بهم وزاد محبتي لهم وثقتهم بي أن زارني أحدهم في المستوصف طالباً نصيحتي بشأن زوجته الحامل التي لم تستطع أن تلد جنينها بالرغم من كل المحاولات التي قامت بها المسؤولة عن التوليد، فطلبتُ منه أن يأتي بها إلى المستشفى. ولحسن الحظ كنت قد تمرّست بالتوليد بعد التخرج من كلية الطب آملاً أن أتخصص بالتوليد والجراحة النسائية. فكشفت على هذه المرأة، وقد أكون أول رجل يكشف على امرأة حامل في المنطقة الشرقية من السعودية، فوجدت أن الجنين مقلوب رأساً على عقب، والولادة ستكون صعبة. فشرحت الأمر لزوجها وقلت له إن الولادة تشكل خطراً على الأم وعلى الجنين إذا لم أنجح في عملية الولادة.

وبعد جهد جهيد استطعت أن أقلب الجنين ليخرج رأسه أولاً، ونجحت الولادة، وكان المولود ذكراً فسمّوه منيراً تيمّناً بطبيبه. ومنذ ذلك الوقت وإلى أن تركت المحطة بعد سنة تقريباً، ولّدت أكثر من عشرة أطفال، سمّي الذكور الستة منهم منيراً والإناث الأربع منيرة.

فإذا ذهب أحدكم يوماً إلى المنطقة الشرقية والتقى بشخص مولود عام ١٩٥٢ ويدعى منيراً أو منيرة، يكون الطبيب الذي أخرجه إلى العالم كاتب هذه الكلمات.

والتجربة الثانية التي لا تزال ماثلة في مخيلتي هي عملية قطع يد السارق. فبينما كنت في زيارة إلى أمير رفحه أخبرني أنه اعتقل شاباً بدوياً سرق ثوب أحد الأمراء السعوديين خلال رحلة صيد في المنطقة الشرقية، وعقابه قطع يده اليمنى التي استعملها في السرقة. فتوسلت إلى القاضي أن يخفّف العقوبة فكان جوابه بالنفي القاطع. فسألته عن آلية قطع اليد، فأخبرني أنهم يشدّون اليد عن الذراع بحبال لكي تتسع المسافة بينهما، فيأتي الجلاد بسكين، وبلمح البصر يقطع اليد. وعلمت أن الكثير من المحكومين يموتون إمّا من النزيف أو من الالتهابات أو لأسباب أخرى. فتوسلت إليه أن أحضر لأساعد قدر المستطاع على تخفيف الألم ومنع الاشتراكات. وبعد محاولات عدة مع القاضي وافق على أن أعاين السارق قبل قطع اليد. فذهبت إلى السجن ووجدت شاباً بدوياً وسيماً لم يبلغ العشرين من العمر واسمه مدهش. فسرد لي بكل هدوء ما قام به ولم تبد عليه أي علامة تدل على خوف أو قلق، فهو مؤمن بالعقاب الذي يستحقّ. وقبل نصف ساعة من تنفيذ العقاب قمت بتخدير المنطقة الواقعة بين اليد والذراع، والتي تمر فيها سكين الجلاد، وأعطيته جرعة كبيرة من المخدر. وواكبته إلى الخارج حيث نفذت عملية القطع بأقل من ثوان، ووقعت اليد اليمنى على تراب الصحراء. ثم أخذت مدهش معي بالسيارة إلى المستوصف حيث قمت بعملية جراحية لتغطية المنطقة المقطوعة من اليد. وبقي مدهش عندي في المستشفى خمسة أيام خرج من بعدها بحالة جيدة. وقد أكون أول طبيب يسمح له بتخدير اليد وبتضميد الجرح بعد قطع اليد.

وأذكر حادثة فريدة أخرى حصلت لي إبان عملي إذ ظهر في الأفق البعيد رجل معه دابة على ظهرها شخص مسطح أفقياً. وبدأت الصورة تتوضح شيئاً فشيئاً إلى أن وصلا إلى باب المستوصف فتبيّن لي أن الشخص الذي على الدابة صبي لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، والبدوي رجل طويل القامة ذو شعر أسود طويل مجدول كشعر النساء، لمّاع وكأنه مدهون بالزيت. وقد علمت لاحقاً أن اللمعان في الشعر ناتج من غسله ببول الجمال. فحمل البدوي الولد ووضعه على سرير الفحص، وإذا به جثة هامدة. فسألته: «من يكون هذا الولد؟»، فأجابني: «ولدي الوحيد». فقلت له: «ولدك مات». فقال بثقة وراحة وبصوت ثابت: «الحمد لله». فصفعته بغضب وقلت له: «كيف تقول الحمد لله وابنك الوحيد جثة هامدة؟» فمفهومي للحمد كان آنذاك بمثابة حمد لله على الخلاص أو النجاة من مكروه ما، ولم أعرف للعبارة أي معنى آخر. فقال لي عندئذٍ: «الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه»، فقلت له: «أعد ما قلت»، فأعاده فقلت له: «من أين لك هذا القول؟»، فقال: «هذا حديث نبوي». فترقرقت عيناي بالدموع وحضنته وقلت له: «والله أسلمت». وكان لهذه الحادثة أثر كبير في تفكيري. فبالرغم من أنني لا أزال أتأرجح بين الإيمان بالله وعدمه، فإن ما قاله هذا البدوي الأميّ وعمق إيمانه بالله أكدا لي عظمة الفلسفة الإسلامية وعظمة نظرتها إلى الموت. وقد تأكدت لي هذه الحقيقة على مرّ السنين عبر تجربتي مع المرضى المسلمين، وخصوصاً السعوديين الذين يقبلون الموت لكونه حتمياً. فهم برغم حزنهم لا يجدون داعياً للمسرحيات أو للنحيب والبكاء وكل المظاهر الفولكلورية التي يمارسها أبناء الديانات الأخرى في حالات الموت وعند إقامة الجنائز. ويكفيني من الإسلام هذه الفكرة وهذه النظرة الرصينة لفلسفة الموت.

وممّا لفت انتباهي في السعودية هو أن السعوديين أكثر الناس شراء للساعات، وخصوصاً الفخمة منها، لكنهم في المقابل لا يولون الوقت أي قيمة. فالمواعيد عندهم كالديكور لا معنى لها أبداً. فلا عذر ولا تفسير لأي تأخير في الموعد. وقد عملت على اختبار هذه الظاهرة. جاءني يوماً بدوي في الساعة التاسعة صباحاً طالباً كشفاً طبياً، فقلت له إنني لا أستطيع أن أعاينه الآن وإنني سأراه بعد برهة رغم أنني كنت غير مشغول. فتركته جالساً في ساحة المستوصف وجئته الساعة الرابعة بعد الظهر فقلت له: «تفضل، حان الوقت». فدخل دون أي استفسار عن هذا التأخير.

وتركت المملكة في حزيران ١٩٥٣ لأتابع تخصصي في الطب الداخلي في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت حيث مكثت سنتين قبل أن أسافر إلى الولايات المتحدة الأميركية.

وطالما نحن بصدد الحديث عن المملكة العربية السعودية سأذكر كيف دخلتها للمرة الثانية، ومن الباب العريض سنة ١٩٥٨. فلدخولي هذا قصة طريفة لا بد من ذكرها. ففي تلك السنة كنت مساعد أستاذ صغير السن مبتدئاً في مستشفى الجامعة الأميركية، ولم أكن معروفاً سوى من المقربين. وفي يوم من الأيام جاءت إلى العيادة امرأة محجبة للمعاينة، وقالت لي: «إنني لا أستطيع أن أدفع مبلغ خمس وعشرين ليرة أجرة معاينتك، وكل ما أستطيع أن أدفعه هو عشر ليرات فقط، فهل تُعاينني؟»، فقلت لها: «إن الفقير والغني هما عندي في منزلة واحدة، ولا لزوم لأن تدفعي أي شيء، فإنَني مستعد أن أعالجك مجاناً مهما طال الزمن»، فرفضت هذا العرض. ثم توصلنا إلى حلّ يحفظ ماء وجهها، فاتفقنا على أن أعطيها خمس عشرة ليرة من جيبي الخاص، فتزيد هي عليها عشر ليرات

وتخرج إلى السكرتيرة بكل كبرياء فتدفع خمساً وعشرين ليرة أمام المرضى المنتظرين. ودامت هذه المسألة عدة أشهر إلى أن جاء شهر رمضان المبارك، وكانت العادة آنذاك أن يذهب الفقراء إلى بيت الأميرة السعودية أم خالد زوجة الملك سعود بن عبد العزيز التي كانت تصطاف في لبنان ولها بيت جميل في منطقة اليرزة قرب الحازمية. في أحد أيام رمضان ذهبت هذه المرأة الفقيرة إلى الأميرة لأخذ الزكاة، فقالت لها الأميرة: «عودي في وقت لاحق، فأنا مريضة وأشعر بألم شديد في البطن، ولا ترجعي قبل أسبوع إلى أن أشفى من مرضي». فأجابتها هذه المرأة البسطاوية البسيطة بلكنتها البيروتية: «بيوجعك بطنك وما شفتي الدكتور شمّاعه بعد؟ هيدا بيعمل عجايب». فقالت لها الأميرة: «من هو الدكتور شمّاعه؟ لم أسمع به من قبل. فأنا أتعالج عند كبار الأساتذة في الجامعة الأميركية مثل الدكتور جورج خياط والدكتور منيب شهيد والدكتور الأرمني يني كومشيان، ولم ينصحني أحد باستشارة هذا الطبيب». فقالت لها المرأة: «جربي ما بتندمي». وفي اليوم التالي وصلتني مخابرة تلفونية من السفارة السعودية يطلبون فيها مني موعداً لزيارة سمو الأميرة جميلة حرم الملك سعود بن عبد العزيز. فأصابتني الدهشة وتمالكت أعصابي وقلت: «سأحاول أن أجد الوقت لزيارتها غداً لأنني اليوم مشغول جداً». والحقيقة أنني كنت شبه عاطل من العمل، أتسلى بلعبة التنس وشرب القهوة في مطعم الأنكل سام. وفي اليوم التالي ذهبت إلى اليرزة وعاينت الأميرة أم خالد، ولحسن الحظ تجاوبت مع العلاج بسرعة فائقة، وأخبرتني بعدها عن قصة المرأة التي عرّفتها بي. وتوطّدت العلاقة الطبية بيننا، إذ أصبحت طبيب العائلة كلها وصديق أولادها جميعاً. ولم يمضِ أسبوعان على هذه الصداقة حتى سافرت إلى الرياض لمعاينة زوجها الملك سعود بناء على اقتراح الأميرة زوجته. وهكذا، في خلال شهر

واحد، انتقلت من طبيب مبتدىء إلى طبيب يعالج الملوك والأمراء. وكما يقال في اللغة اللبنانية «كرّت المسبحة».

زرت الملك سعود في قصره في منطقة الناصرية في الرياض. وهو رجل طويل القامة، جميل الطلعة، ذو رجولية واضحة وشخصية بسيطة غير معقّدة. كان يشكو من أمراض عدة أهمها ارتفاع الضغط وقصور الكلى، وهما مرضان ليسا من اختصاصي. ولولا إصرار زوجته الأميرة أم خالد لما طلب مني أن أذهب لمعاينته. وقد أوضحت له بكل صراحة أن اختصاصي هو الجهاز الهضمي، ولذا فلن أستطيع أن أزيد على ما ينصحه به كبار الاختصاصيين من الأطباء البريطانيين والفرنسيين الذين أمّوا الرياض لمعالجته. وكان لصراحتي وقع كبير عنده، مما زاد ثقته بي، فبدأ يستشيرني بعد انتهاء مراجعاته مع الأخصائيين الأجانب.

وكان كرمه ذائع الصيت. فالمال لا قيمة له عنده. فأغرقني بالهدايا القيّمة أكثر مما أستحق، ثم تفاقمت حالته الصحية وبدأ يذهب إلى أوروبا للمعالجة، إلى أن استقر في اليونان حيث توفي.

ولم تكن الأميرة أم خالد، إحدى زوجاته الأربع آنذاك، أقل كرماً منه. فكانا يتباريان بإغداق الهدايا على الطبيب الصديق. وقد تعرفت من خلالهما إلى كبار الأمراء السعوديين، ومنهم الأمير فيصل بن عبد العزيز الذي خلف الملك سعود بعد وفاته. وتختلف تصرفات الأمير فيصل اختلافاً جذرياً عن تصرفات أخيه الكبير الملك سعود، إذ كان رجلاً كتوماً، قليل الكلام، مواعيده صارمة، ولا يدخل في نقاش مع طبيبه إلّا في ما يتعلق بمشكلته الصحية التي كانت ضمن اختصاصي. فقد أصيب بقرحة في المعدة فأجريت له

على الأثر عملية جراحية استؤصلت خلالها قطعة من المعدة، كما كانت العادة في تلك الأيام، لكنه بقي يعاني من الآلام. وكان الكثير من هذه الآلام ناجماً عن توتره العصبي وكثرة أعماله. كان الملك فيصل ذا شخصية قوية تبعث على الاحترام وتحدّ من أي تطرق إلى حديث غير مجد، فكان جدياً في معاملته ولم يكن مبذراً كأخيه الكبير، إذ كان يطلب من معاونه أن أبعث بفاتورة الحساب فيدفعها بلا زيادة ولا نقصان، مع علبة تحتوي على ساعة سويسرية وعليها رسم فيصل واسمه. فشتّان ما بين بذخ الملك سعود وانضباط الملك فيصل.

بعد معاينة الملكين انفتحت لي أبواب المملكة العربية السعودية على مصاريعها فذاع صيتي بين الأمراء وذوي الشأن في البلاد وبدأت أتعرف إلى العديد منهم مثل الأمير عبد الله بن عبد العزيز، الرجل العربي الوسيم وقائد الحرس الوطني، والأمير سلطان بن عبد العزيز، ووزير الدفاع، والأمير مشعل وأخيه متعب، والأمير ماجد، والصديق الكبير الأمير بدر نائب قائد الحرس الوطني الذي أكنّ له كل المحبة لطيبته وخصاله الحميدة.

سبعة وأربعون عاماً مضت على دخولي المملكة العربية السعودية، واكبت خلالها التطور والتغيرات المذهلة التي حصلت فيها. فالاختبار السعودي فريد من نوعه، والسرعة التي تمت فيها كل هذه الإنجازات الضخمة من طرقات وجسور ومبان ومستشفيات ومواصلات حديثة ومدّ الكهرباء والماء إلى كل قرية من قرى هذه البلاد الكبيرة حصلت بسرعة مذهلة لا تكاد تصدق. فبين ليلة وضحاها انتقل المواطن السعودي من القرن التاسع عشر إلى أحدث ما أنجزه القرن العشرون.

وترافق هذا العمران مع سيل دافق من الدخل المالي. فبعدما كان المواطن السعودي، بدوياً كان أم حضرياً، يعمل جاهداً في الثلث الأول من القرن العشرين لكسب لقمة العيش، أصبح المال يتدفق عليه بلا حساب، وصار المال العنوان الأول والأخير في المملكة، وتغيرت كل المقاييس. فالإنسان يقاس بما عنده من مال فقط، وانتشر المثل السائد في تلك الحقبة: «معك قرش بتسوى قرش، معك مليون بتسوى مليون».

وكان لهذا الفيضان المالي أثر كبير في بعض صغار النفوس من أهالي المملكة فأحدث تغيرات بشعة في تصرفاتهم، وخصوصاً أثناء تجوالهم في بلاد الغرب، مما جعلهم فريسة الإعلام الصهيوني. فلم تخل صحيفة أو مجلة أو ريبورتاج تلفزيوني أو غمزة سينمائية من وصف الإنسان العربي بالغني الجاهل الذي يجوب الشوارع بسيارات الكاديلاك المذهّبة، والفلوس تندثر هنا وهناك في أندية القمار وجيوب الغانيات. ولقد ترسّخت هذه الصورة البشعة فشملت في ذهن العالم الغربي كل من ينطق باللغة العربية سواء أكان من أهل النفط أم لم يكن. وما زلنا نعاني من هذه الصورة حتى يومنا هذا.

ولا بد من القول إن العديد من العائلات السعودية العريقة وجمعاً غفيراً من المثقفين السعوديين تألموا كما تألمنا نحن من هذه الظاهرة البشعة، وتمنوا لو يرجعون إلى الأيام السالفة حين كانت قيمة الإنسان بأعماله لا بماله.

أقول كل هذا بألم ومحبة لأنني عرفت الإنسان السعودي منذ زمن بعيد وعشت خصاله الحميدة ودماثة خلقه وطيبته وكرمه، وما زلت أفخر بصداقتي للكثير من السعوديين الذين أحبّوا لبنان واللبنانيين

فتألموا كثيراً عندما مرَّ لبنان بمحنته التي استمرت عشرين عاماً. ولا بد من القول هنا إن المملكة العربية السعودية ساهمت في الحدّ من الضيق الاقتصادي الذي عاناه آلاف اللبنانيين الذين لجأوا إليها للعمل إبان الحرب.

فلن أنسى عرض الأمير بدر بن عبد العزيز إبان الحرب الأهلية عندما قال لي تعال يا طبيب إلى الرياض وأنا مستعد أن أؤمن لك منزلاً لائقاً وسيارة مع سائق، وعملاً ومدخولاً محترماً. وبما أنني أدرك مدى تعلقك ببيروت ولبنان فسنؤمن لك أيضاً تذكرة سفر كل شهر لتقضي أسبوعاً في بيروت.

ولن أنسى أيضاً تلك السيدة السعودية الكبيرة التي بعثت إليَّ كتاباً بواسطة رسول لها تكبد السفر والأخطار إبان القصف سنة ١٩٧٦، آتياً من دمشق لأن مطار بيروت كان مغلقاً. ولما فتحت الكتاب وجدت فيه شيكاً، أحمر اللون، مسحوباً على البنك العربي في بيروت، وهو أحد المصارف القليلة التي لم تغلق أبوابها أيام الحرب. والشيك موقّع من السيدة الكريمة من دون تدوين قيمة عليه. فذهبت في اليوم التالي إلى البنك العربي وسألت مديره آنذاك عن القيمة التي يمكنني سحبها. وكان الجواب ثلاثة ملايين ليرة لبنانية، أي ما يعادل مليون دولار أميركي في ذلك الوقت. فتركت الشيك معي إلى أن سنحت لي الفرصة لإعادته إلى السيدة الكريمة في رحلاتي إلى جدة في المملكة العربية السعودية.

أمثلة ذكرتها لا على سبيل التسلية بل للتأكيد أن العرب مهما اختلفت أقطارهم وثقافتهم وتربيتهم، شعب واحد يتألمون لآلامنا ويفرحون لأفراحنا.

الفصل الخامس

في الولايات المتحدة الأميركية

أبحرت إلى أميركا على متن باخرة مصرية تدعى «محمد علي الكبير» في حزيران ١٩٥٥ بعد أربع سنوات من تخرجي، ثلاث منها قضيتها طبيباً مقيماً في مستشفى الجامعة الأميركية والرابعة طبيباً في شركة التابلاين الأميركية. وصلت إلى أميركا في تموز ١٩٥٥ وكنت شاباً طموحاً وفخوراً بأنني أول طبيب من لبنان سمح له بالتخصص في أمراض الجهاز الهضمي في كلية الطب التابعة لجامعة هارفرد في بوسطن. وكان في جيبي في ذلك الوقت مئتان وثلاثون دولاراً أميركياً فقط. وبالرغم من قلة المال لم أشعر يوماً بالخوف أو القلق.

وأول انطباع لي عن الولايات المتحدة هو قوتها وضخامتها. فسياراتها كثيرة، وطرقها واسعة، وأبنيتها شاهقة، وجسورها فتنتني بحجمها وجمالها. فبعد فقر لبنان وضآلة حجم كل شيء فيه،

أذهلتني ضخامة كل شيء في أميركا؛ فإذا ذهبت إلى المطعم وطلبت بيتزا تأتيك صينية بيتزا تكفي أربعة أشخاص. وحدّث ولا حرج عن قطعة اللحم أو صحن البوظة. أما الإنسان الأميركي، فالمال سلطانه، وكل شيء يقيسه به. في أميركا تعجبت لسماعي زملائي الأميركيين يذكرون ثمن الشيء الذي يشترونه. فبينما كنا في لبنان نكتفي بتسمية ما نشتريه، فإن الأميركي يذكر كذلك ثمن ما يشتريه فيقول مثلاً إنه اشترى قبعة بثلاثين دولاراً، وإذا ذهب إلى السينما يذكر سعر التذكرة. فالتباين في النظرة إلى المادة ظهر لي من الوهلة الأولى. ففيما نتجنب نحن ذكر المال أو حتى نخجل من ذلك، فإن الأميركيين يشدّدون على أهميته ويضعونه في مركز الصدارة.

وفي السنتين اللتين قضيتهما في مدينة بوسطن بدأت تتوضح لي الفوارق الكبيرة بين مجتمعنا اللبناني أو العربي والمجتمع الأميركي، مما يفسر الكثير من التصرفات الأميركية تجاهنا، سواء أكانت سياسية أم إنسانية. وأهم ما يقال عن هذا الموضوع أنه لم تجر إلى الآن أي دراسة جدّية من قبل الطرفين العربي والأميركي لفهم هذا الاختلاف الكبير من المجتمعين. وباعتقادي أن فهم هذه الاختلافات يساهم إلى حد كبير في حلّ المشاكل والعقد التي تسيطر على تصرفات الطرفين وقراراتهما. وسأعرض بطريقة مبسطة بعض الملاحظات التي كوّنتها إبان وجودي في الولايات المتحدة الأميركية.

يصنف الغرب المجتمع العربي بأنه مجتمع بداوة. وهذا التصنيف منبثق من خطأ المؤرخين والمستشرقين الذين درسوا القضايا العربية وبالأخص الجزيرة العربية التي استرعى نظرهم ظاهرة البداوة الفريدة

التي كتبوا عنها. وظلّت هذه الفكرة سائدة في تفكير الإنسان الغربي حتى يومنا الحاضر، بالرغم من أن البداوة لم تعد الركيزة الاجتماعية في العالم العربي. فالبدو الآن لا يمثلون إلّا جزءاً ضئيلاً من مجمل السكان في البلاد العربية. ولعل الأهم من ذلك أن للبداوة عند الغرب مدلولاً سيكولوجياً له عدة ركائز أولها التخلف وعدم الانتماء وعدم الانضباط إلى ما هنالك من صفات سلبية لا تساهم في بناء وطن أو في الخضوع لسلطة مركزية. وقد ساهم في هذا التفكير الإعلام الغربي، وخصوصاً الإعلام في الولايات المتحدة الأميركية الذي يسيطر عليه النفوذ اليهودي والصهيوني. فما من مقال أو فيلم سينمائي أو مسرحية أو أغنية تتطرق إلى الشأن العربي إلّا وتعطي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة صورة عن سذاجة البدو وحماقتهم. ولما عظم شأن العرب المالي باكتشاف النفط عنفت وتيرة هذه الاتهامات وزاد عليها اتهام الإنسان العربي بالبذخ والفجور وإنفاق المال بلا حساب ولا رادع. وكلنا نذكر الصورة التي تعطيها الصحف والكاريكاتورات الأميركية (أو الغربية) للإنسان العربي. فالعربي فيها هو رجل قبيح وقذر، ممسك بفتاة، وسيارة الكاديلاك إلى جنبه والفلوس تهر بغزارة من جيبه.

قد تبدو هذه الملاحظات سخيفة للوهلة الأولى، لكنها لعبت دوراً كبيراً في تشويه صورة الإنسان العربي عند الغربيين عامة، وعند الأميركيين بصورة خاصة. وقد دلّت على ذلك الموجة العارمة من العطف على دولة إسرائيل «المسكينة والراقية والديموقراطية» أمام هجمة الشعوب العربية المتخلفة. ولا بد من القول في هذا المجال أن هذه الفكرة التي ترسخت عند الرأي العام العالمي كان لها الأثر الكبير في اتخاذ القرارات السياسية لصالح إسرائيل. ونجم عن هذه الصورة المشوّهة أن قدّمت أميركا والعالم الغربي مساعدات مالية

وعسكرية وسياسية ضخمة لدولة إسرائيل. وفي سياق كلامنا عن البداوة، أشير إلى أن الحقيقة برأيي هي نقيض الصورة المعطاة عنّا، فنحن شعب له جذور عميقة وأصيلة نحتفظ بها كاحتفاظنا بأثمن الأشياء. فعلاقاتنا بالأرض علاقة متينة. فابن منطقة من بيروت على سبيل المثال يشعر بانتماء قومي إلى منطقته، وعلاقته بمنطقته هي كعلاقة الجنين بأمه عبر السرة. ولا بد من ذكر حادثة طريفة حدثت لي في هذا المجال. فعند زواجي، لما قلت لأمي بأني استأجرت منزلاً في شارع التنوخيين في رأس بيروت يبعد عن منزلنا في شارع جان دارك حوالى نصف كيلومتر قالت: «ولو يا ابني ليش هالقدّ مبعّد».

أما الحال في أميركا فهي نقيض ذلك تماماً. فلا جذور يتعلق بها الأميركيون ولا انتماء لشارع أو مدينة أو ولاية. فقد يولد الأميركي في ولاية ثم يدرس في ولاية أخرى ويعمل في ولاية ثالثة. وإذا فتح له المجال يذهب من مكان إلى آخر بدون حسرة أو اشتياق، فيقطع علاقاته بكل ما سبق. وقد يفسّر كل ذلك بطبيعة العلاقات الإنسانية بين الأميركيين. فهي طبيعة نفعية وسطحية لا تدخل فيها العوامل العائلية أو المناطقية أو العاطفية. فالأميركي عندما يصبح مسناً تنبذه عائلته ويصبح شخصاً وحيداً وكئيباً تؤمن له كل أسباب الراحة المادية في مؤسسات مخصصة للمسنين حيث يجد كل شيء إلّا العطف والقرب من العائلة. فبينما نحن لا نحتاج إلى مؤسسات للعجزة أو للمسلمين لأن من عاداتنا وتقاليدنا العريقة أن يبقى كبارنا بيننا، يجد الأميركي أن المسنّ أصبح عبئاً عليه فيضعه في مؤسسات ينقصها كل ما يريده سوى الراحة الجسدية التي لا تشفي غليله، فيموت بترف وكآبة معاً.

ومن الإنصاف أن نقول إن الشعب الأميركي يولي الصغار اهتماماً

كبيراً ويعمل المستحيل لخلق كل الفرص لتعليمهم وتهيئتهم لمجابهة المستقبل إلى أن يصبحوا في سن لا تتجاوز السابعة عشرة. بعد ذلك يغادرون بيوت أهلهم ليبنوا مستقبلهم بأيديهم. وهذه الظاهرة قد تكون من الأسباب التي تجعل بعض الشباب الأميركيين الذين لا يملكون القدرة على مجابهة هذه التحديات، يشردون في عالم المجهول ملتجئين إلى أساليب تساعدهم على التغلب على هذه الصعاب، فيبدأون بتناول الكحول والمخدرات، الأمر الذي أدى إلى مأساة اجتماعية كبيرة في المجتمع الأميركي.

لكن كفانا من الانطباعات السلبية التي ظهرت لي إبان وجودي في أميركا، وكأن لا انطباعات لديَّ غيرها. فتجربتي في الولايات المتحدة الأميركية كانت غنية وعلّمتني الكثير، وخصوصاً في محيط الجامعة التي كنت أتخصص فيها، أي جامعة هارفرد. ولعلّ أهم ما لحظته هو رقي الحياة الأكاديمية التي تتمتع بها الجامعات هناك، وخصوصاً تلك التي لها تراث قديم وعريق كهارفرد وكولومبيا وييل وغيرها من الجامعات المنتشرة على الشاطىء الشرقي من الولايات المتحدة الأميركية. فالجامعة التي درست فيها مثلاً كانت تضمّ ما لا يقل عن ثلاثة أساتذة يحملون جائزة نوبل في الطب والكيمياء العضوية. وعندما تتحدث معهم يبدون كأنهم صغار القوم، يلبسون الثياب البسيطة ويعملون في مكاتب متواضعة لا تبلغ مساحة الواحد منها مساحة غرف البوابين في شقق بيروت الفخمة ويكتبون على أبواب مكاتبهم «ادخل ولا تدق الباب». أما طعام غدائهم فسندويشات تحضّرها لهم زوجاتهم في البيت، وهم يعملون من الصباح الباكر حتى ساعات متأخرة من الليل في الدراسة والأبحاث، ثم يستقلون القطار ليذهبوا إلى بيوتهم.

وقد تعرفت، بناء على طلب أستاذي، إلى أحدهم، ويدعى الدكتور فريتز ليبمان الحائز جائزة نوبل في الكيمياء العضوية، ليوجهني في دراسة مشروع بحث عن موضوع كيميائي يتعلق بأمراض الكبد. ففتحت بابه ودخلت مكتبه الصغير وإذا به مستلقٍ على كنبة صغيرة لابساً الجينز وحذاء رياضياً يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية ويقرأ مخطوطة أعدها ليلقيها في مؤتمر عالمي للأبحاث الكيميائية. وكان الوقت ظهراً، فسألني إن كنت تناولت طعام الغداء لأن زوجته أعطته من السندويشات أكثر مما يحتاج. وصبّ لي قهوة في كوب بلاستيكي، وبدأنا الحديث الذي استغرق أربع ساعات. وقد شرح لي خلاله، بصورة مبسطة وتفصيلية في آن واحد، كل ما أحتاج له من معلومات لأقوم بهذه الدراسة التي استغرقت ستة أشهر.

أقول كل هذا لأؤكدّ أن رقيّ الحياة الأكاديمية في الولايات المتحدة الأميركية ليس له نظير في أي بلد في العالم. ففي أوروبا مثلاً تجد أن الهرم الأكاديمي يختلف كل الاختلاف عما تجده في أميركا. فالأستاذ في أوروبا، وحتى في بريطانيا البلد الأنكلوسكسوني الآخر، هو بمثابة الديكتاتور الذي لا منازع له ولا تستطيع مخاطبته إلّا بمناداته «البروفسور». يمشي خلال دورته في المستشفى على رأس مجموعة من الأساتذة والطلاب وكأنه قائد جيش، وكلمته هي النافذة ولا تقبل الجدل، بينما تجد أن الأستاذ في أميركا يردّد بعد كل جملة يقولها: «وقد أكون على خطأ» و«أرجو أن تدلوا بآرائكم إذا كانت تختلف عمّا أقوله لكم». فالتواضع العلمي أو الذهني الذي وجدته في أميركا كان له التأثير العظيم على حياتي العلمية، فدأبت على ممارسة هذه الطريقة من الجدل في تعاملي مع تلامذتي عندما رجعت لأدرّس في كلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت.

والأساتذة في جامعة هارفرد هم خير مثال على هذا التواضع. فقد كنت أخاطب أساتذتي هناك باحترام زائد بادئاً بكلمة «نعم يا أستاذي» إلى أن أوقفني يوماً رئيس قسم الجهاز الهضمي حيث كنت أدرس وقال لي: «يا منير، اسمي شستر جونز، وإن أحببت أن تلقبني بالدكتور جونز فلا مانع عندي. لكن كلهم يلقبونني «تشيت»، وكما لاحظت فإن البواب الذي يعمل في المصعد يصبّحني كل يوم قائلاً: «صباح الخير يا تشيت». فلماذا لا تناديني بهذا الاسم لأنه أقرب إليَّ من أي اسم آخر؟».

ومما استرعى انتباهي في الحياة الأكاديمية الأميركية أن الأساتذة في أميركا يحبّون مساعدة الطلاب الذين يتخصصون عندهم. والسعادة التي يشعرون بها عند تفوّق تلامذتهم كبيرة جداً، سواء كان تفوّقهم في موضوع من الأبحاث العلمية أو في مناظرات سريرية. فلا حسد ولا غيرة ولا منافسة تعكّر صفو العلاقات بين أفراد العائلة الأكاديمية الواحدة.

هذا الكلام ينطبق على تجربتي في أثناء سنوات الدراسة التي قضيتها في أميركا. لكن على مرّ السنين، من خلال زياراتي السنوية للولايات المتحدة لحضور مؤتمرات طبية، لاحظت تحولاً في روحية الحياة الأكاديمية في أميركا إذ بدأ يطغى عليها عنصر المادة وعنصر التنافس وتأثير المؤسسات المالية الضخمة، وخصوصاً شركات التأمين الطبية التي بدأت تحتل مركز القرار في كل كبيرة وصغيرة، وتتحكم في مصير الطبيب والمريض بانية قراراتها على أسس الربح والخسارة. وكانت الضحية الأولى هي الأبحاث العلمية الأساسية التي لا تملك مقومات الربح أو الإنتاج في المستقبل المنظور. ولذا نجد أن الأبحاث في الوقت الحاضر تنحصر في المشاريع التي تأمل الشركات الكبيرة

أن تدرّ عليها أرباحاً. أما المخصصات للأبحاث الأساسية فقد قُننت بطريقة جذرية، مما جعل الكثير من الأطباء في أميركا يتوجهون إلى فروع طبية تدر المال عليهم. وقد لاحظنا أن نسبة الأميركيين الذين يعملون في الأبحاث الأساسية قد خفّت وحلّ محلّهم أطباء من بلدان أخرى، وخصوصاً من كوريا والصين والهند والبلاد العربية لأن هؤلاء يقبلون بدخل أدنى. ولهذا التحول خطر كبير على مستوى البحث الأساسي في الولايات المتحدة لأنه أصبح أسير المال والشركات الكبرى.

إن وصفي للحياة الاجتماعية في أميركا ينحصر في تجربتي في مدينة بوسطن التي قضيت فيها أوقاتي وذلك من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٥٧. أقول هذا لأن تغيرات كبيرة طرأت على هذه الحياة في السنين التالية وذلك استناداً لما شهدته في زياراتي العديدة اللاحقة لها. وقد يصحّ القول أن من أهم أسباب التغيرات التي حصلت حرب فييتنام التي خاضها الأميركيون وفشلوا في الوصول إلى حل يرضيهم فضلاً عن الخسارة البشرية الكبيرة التي منوا بها.

إن صورة الأميركي في مدينة بوسطن قد لا تعكس صورة الأميركي في كل الولايات المتحدة، خصوصاً أن هذه المدينة كانت وما زالت من أرقى المدن الأميركية في حقول العلم والطب والفن والموسيقى. وكان حظي كبيراً أنني استأجرت شقة صغيرة بستين دولاراً شهرياً ولمدة سنتين متتاليتين على تلة تدعى بيكون هيل كانت بمثابة الحي اللاتيني في باريس. فأكثر سكانها كانوا من الشبان والشابات الجامعيين الذين اشتهروا بليبراليتهم المميزة. وكانت الندوات الاجتماعية بمثابة مناقشات على مستوى أكاديمي رفيع تعلمت فيها الكثير وساهمت في تطعيمها بالخلفية الشرقية التي تزودت بها من

لبنان. والمجموعة البشرية التي تعايشت معها طوال هاتين السنتين كانت مميزة جداً. وعلى سبيل المثل فإن جيراني كانوا يتألفون من التشكيلة التالية: رجل متزوج درس اللاهوت وتوصل بعد هذه الدراسة الطويلة إلى الإلحاد وأصبح مدمناً الكحول، امرأة من عائلة عريقة سئمت سخافة المال والسلطة فدرست السحر وأصبحت تعمل «بصارة» في أيام الشتاء، أمّا في الصيف فتذهب إلى هيانس بورت حيث يقيم الدم الأزرق «البوسطوني» مثل عائلات كنيدي وكابوت ولودج وغيرها من كبار العائلات الأرستقراطية في بوسطن. وكان المثل السائد في تلك الأيام أن عائلة كابوت يسمح لها بأن تتكلم مع عائلة لودج، أما عائلة لودج فلا تتكلم إلّا مع الله.

والأرستقراطية في ولاية مساشوستس كانت مغروسة بعمق في دم البوسطينيين، مما يذكّرني تماماً بالأرستقراطية في العائلات الدرزية في لبنان التي رسمت شجرة واضحة تظهر تسلسل المشايخ. وكان واضحاً في تلك الحقبة أن العنصر اليهودي كان منبوذاً من جانب العائلات العريقة في بوسطن إذ كان اليهود مصنّفين في منزلة لا تعلو إلّا قليلاً عن منزلة السود.

ففي المجال الأكاديمي، وبالرغم من تفوق اليهود في بعض الحقول، كانت المراكز الكبيرة محفوظة للبروتستانت. كما أن الأحياء السكنية الراقية كانت ترفض وجود العنصر اليهودي فيها. وقد قيل لي إن بعض سكان هذه الأحياء كانوا يكتبون على أبواب بيوتهم «ممنوع دخول اليهود». وهذه النزعة العنصرية لم تكن محصورة في بوسطن، بل كانت على أشدها في جنوب الولايات المتحدة حيث كانت التفرقة واضحة بين البيض والسود بدرجة أولى، كما أنها

كانت تظهر أيضاً لكن بصورة أقل وضوحاً ما بين المسيحي واليهودي.

وقد تعرفت إلى الكثير من الرجال والنساء الذين زوّدوني بكنز من الأفكار التحررية الجديدة كالتحرر من عقدة الجنس، وعقدة الخوف من إبداء الرأي مهما كان مخالفاً لآراء الآخرين أو غير مقبول، وساعدني أيضاً في هذا الانفتاح حالتي المادية البائسة التي جعلتني أبحث عن عمل إضافي يؤمن لي سبل العيش. فاشتغلت لمدة قصيرة «جارسوناً» في مطعم فرنسي فاخر لأنني كنت أتكلم اللغة الفرنسية. فكنت أذهب إليه كل مساء بعد خروجي من المستشفى وألبس بدلة السموكنغ التي أعطاني إياها صاحب المطعم وأستقبل الزبائن باللغة الفرنسية، هذه اللغة التي كانت وما زالت عقدة الأميركيين. فمن يتكلمها هو إنسان متحضّر وراقٍ، وهو الذي يذكرهم بالقارة الأوروبية التي كانوا يكنّون لحضارتها احتراماً كبيراً. ثم عملت بائعاً للبنزين في محطة للوقود في قلب المدينة يملكها شخص من أصل سوري يدعى جون ناش كنت قد التقيته مرة عندما كنت في سيارة صديق نملأ خزان الوقود من هذه المحطة، فتكلم صاحبها بلهجة غريبة، وعندما سألته عن جذوره قال لي: «إنني من الشام وجئت إلى بوسطن مع والدي وأنا طفل صغير إلى أن فتحت هذه المحطة». فقلت له: «لكن اسمك إنكليزي محض». فأجابني: «أنا أدعى حنا النشاواتي، فرأيت أنه من الأسهل أن أغير اسمي إلى جون ناش». هكذا تعارفنا، ثم عملت عنده، وكان اختباري في هذه المحطة جميلاً إذ تعلمت غسل السيارات وتغيير الزيت وغيرهما من الأعمال. وكنت أتقاضى البخشيش من بعض الزبائن، وفي يوم من الأيام التقيت برجل كنت أعرفه في بيروت يدعى جوزيف صقر، وهو من قرية بتعبورة اللبنانية في قضاء الكورة، فرحّب بي وسألني

إن كنت أريد أي مساعدة. فقلت له إنني أريد عملاً يؤمن لي مدخولاً أفضل. فسألني: «هل تجيد قيادة السيارات؟»، فقلت له إنني حزت رخصة سوق أميركية منذ مدة قصيرة. فما كان منه إلّا أن زوّدني بسيارة تاكسي، وهو صاحب شركة تاكسيات تدعى «ليبرتي». وقد أتاحت له علاقاته مع المتنفذين في بوسطن أن يزوّدني برخصة إضافية لقيادة التاكسيات، فصرت أعمل ليلاً سائق تاكسي، وكان موقفي على باب المستشفى الذي كنت أعمل فيه. وقد صادف مرات عدة أنني كنت أوصل مرضى كنت قد عالجتهم قبل ساعات في المستشفى، فأتحوّل من طبيب معالج إلى سائق تاكسي يتقاضى البخشيش في يوم واحد.

والجدير بالذكر في هذا المجال أن رئيسي في المستشفى والمرضى الذين كنت أوصلهم لم يستهجنوا الأمر أو ينظروا بعين الازدراء إلى ما كنت أقوم به من عمل.

بعد فترة تركت عملي كسائق تاكسي بسبب الإرهاق الشديد وعدم النوم. ومن أهم الأعمال التي قمت بها والتي ساعدتني كثيراً في تأمين نفقات العيش ما قمت به في الأشهر الثلاثة الأخيرة التي قضيتها في الولايات المتحدة قبل رجوعي إلى بيروت، إذ علمت من مساعدة اجتماعية تعمل في المستشفى الذي كنت أعمل فيه أنها بحاجة إلى من يهتم بقطتها عند سفرها وزوجها لمدة ثلاثة أشهر. وهذه السيدة كانت تنتمي إلى عائلة من أعرق العائلات البوسطونية، وزوجها، البروفسور أليس، كان أستاذاً كبيراً في الفيزياء النووية ويملك حصة كبيرة في شركة أليس شالمرز التي تصنع التراكتورات الزراعية. وقد طلبت منه الحكومة الأميركية أن يذهب إلى مدينة الأماجوردو في ولاية نيومكسيكو التي تقع جنوب غربي

الولايات المتحدة ليساهم في الاختبارات على القنبلة الذرية.

عندما قالت لي السيدة أليس إنها بحاجة إلى شخص يهتم بقطتها، واسمها «كايباب» لأنها ولدت في بلدة في كولورادو تحمل الاسم نفسه، قبلت على الفور فأخذتني إلى بيتها، أو بالأحرى إلى قصرها، الواقع في مدينة كامبريدج التي اشتهرت بوجود جامعة هارفرد فيها، وهي من ضواحي مدينة بوسطن.

أذهلتني عظمة هذا البيت المؤلف من ست غرف نوم وستة حمامات وعدة صالونات وحديقة كبيرة فيها مسبح جميل للغاية. شرحت لي السيدة أليس ما هي واجباتي تجاه هذه القطة. أما الطعام فكان يتألف من معلبات مخصصة للقطط، وأما الحليب فيؤمنه بائع الحليب الذي يأتي يومياً لتزويدنا بقنينة من الحليب الطازج أسكبها في وعاء القطة لكي تشربها. وقالت لي إن كل ما عليَّ أن أعمله هو أن أتأكد من أن القطة بصحة جيدة. وعندما تخرج إلى الجنينة كعادتها كل مساء عليَّ أن أتأكد من أنها عادت إلى مربضها فأغلق الباب. وبعد سفر السيد والسيدة أليس كنت أتلقى منها يومياً مخابرة تلفونية من نيومكسيكو للاطمئنان عن القطة. وفي يوم من الأيام خرجت القطة إلى الجنينة ولم ترجع كعادتها فانتابني الذعر. وتذكرت في ذلك الوقت والدي الذي كان ينتظر أختيّ الاثنتين عندما تتأخران في العودة من السهرة، فيقف على البلكون منتظراً رجوعهما، ولا يهدأ له بال إلّا بعد وصولهما بالسلامة.

وبعد ساعتين من أطول الساعات وأصعبها في حياتي، عادت القطة «كايباب» تتبختر ببطء، فمسكتها بقساوة وزربتها في غرفتها ولم أدعها تخرج منها إلّا قبل يومين من رجوع السيد أليس وزوجته إلى

بوسطن. وكان الاتفاق بيني وبين عائلة أليس يقضي بأن أسكن في البيت دون مقابل، وكذلك سمحت لي السيدة أليس بأن آكل من الطعام الموجود في البراد ومن المعلبات الموجودة في خزائن المطبخ، لكنها لم تسمح لي بأن آكل اللحوم والأسماك الموجودة في الثلاجة.

ولسوء حظ عائلة أليس أنني لم أنفّذ هذه الشروط، ففي فترة الأشهر الثلاثة التي قضيتها في البيت أكلت المسموحات والممنوعات. فكنت أقيم الحفلات لأصدقائي، وكنّا نأكل ونشرب ما نشاء. وفضلاً عن ذلك كلّه، كنت أؤجر الغرف الخمس الباقية لأصدقائي الأطباء الذين يأتون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بوسطن، شرط أن يدفعوا دولارين في الليلة مع وجبة العشاء. وقد أتقنت هذه المهنة من أول يوم على وجودي في بوسطن، إذ كنت أتولّى الانتباه لأطفال زملائي الأميركيين المتزوجين حين يخرجون للسهر، وأثناء غيابهم كنت أدعو أصدقائي إلى تناول العشاء في البيت، فأؤمن عشائي وعشاء أصدقائي فضلاً عن الدولارات الخمسة التي كنت أقبضها لقاء هذه الوظيفة.

وفي إبّان وجودي في دار أليس اكتشفت لذة التلفون فكنت أهاتف كل أصدقائي في أنحاء الولايات كلها، مما جعل فاتورة التلفون تصل إلى أرقام خيالية. ولما عادت السيدة أليس إلى البيت ورأت ما رأت في المطبخ والثلاجة، انتابها الغضب وأنّبتني وقالت لي: «لم يبق إلّا الملح في البيت، فخذ هذه المملحة حتى لا يبقى أي أثر لأي غذاء». وبعد رجوعي إلى بيروت وصلني كتاب منها يحتوي على فاتورة التلفون التي بلغت ٢٨٠ دولاراً مطالبة بدفعها. ولمّا لم أردّ عليها جاءني كتاب من محاميها يهددني فيه بأنه إذا لم أسدد المبلغ

فسيخبر سلطات الهجرة لتمنعني من دخول الولايات المتحدة الأميركية، لكنني دخلتها بعد سنة ولمدة ثلاثين سنة من دون أي مشكلة.

في ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٥ وصلت تيريز مالك زوجة المستقبل إلى بوسطن إذ تأكدت بعد تجاربي الكثيرة مع النساء الأميركيات أنه من الأفضل أن أتزوج فتاة من فتيات بلدي، فأقامت تيريز بعد وصولها عند آل خوري، وهم من أصدقائي اللبنانيين، لمدة خمسة أيام، ثم تزوّجنا في ١٥ تشرين الثاني. وكان إشبيني الصديق الدكتور إدمون شويري الذي كان يتخصص في بوسطن أيضاً. وهناك تعرفت إلى الدكتور عبد الله سعادة رئيس الحزب القومي السوري واستمرت صداقتنا حتى وفاته. ولا بد من ذكر الحالة النفسية التي انتابتني قبل الزواج، فلقد كنت خائفاً خوفاً شديداً من دخولي هذا القفص الذهبي، وكدت أنهار كلياً. فذهبت إلى معلمي الدكتور جونز وصارحته بما أشعر به، فقال لي إن هذا الشعور ينتاب كل شاب يقدم على الزواج وأضاف: «لا تخف، فالزواج صعب في الأسبوع الأول، وبعده يصبح كأنك تقرأ جريدة الصباح». وقبل الزواج بأسبوع اشتريت سيارة شفروليه موديل ١٩٥١ بخمسة وسبعين دولاراً أميركياً. وذهبت مع تيريز إلى الخوري الأرذوكسي، الأب فان ساتش، وقلت له إن ميزانيتي لا تسمح بعرس كبير. فقال لي إن كل ما سأتكلفه هو خمسة وعشرون دولاراً فقط، فذهبنا إلى الكنيسة وتزوجنا. ثم أقام لي أستاذي حفلة كوكتيل في بيته وقدّم لي زملائي في قسم الجهاز الهضمي هدية العرس وهي نحو مئة دولار مع حجز في فندق «فافت» في نيويورك لمدة ثلاثة أيام مدفوعة سلفاً. وكان الطقس في أول يوم من شهر العسل مثلجاً. ذهبنا بالسيارة إلى بلدة فرامينهام التي لا تبعد كثيراً عن بوسطن

ونزلنا في موتيل بسيط. وفي اليوم التالي حاولنا السفر إلى نيويورك لكن السيارة لم تستجب لدعوتنا إذ طرأ عليها عطل يكلّف أكثر من ثمنها فنصحني صاحب الفندق ببيعها. فذهبنا إلى مرأب للسيارات وبعت السيارة بخمسة وعشرين دولاراً. وتذكرت أنني نسيت أن أعطي صاحب المرأب مفتاح السيارة فرجعت مسرعاً واعتذرت منه وأعطيته المفتاح، فقال لي إنه لا لزوم للمفتاح لأن السيارة ستذهب إلى الكسر.

كانت الحياة الزوجية في أميركا باديء ذي بدء صعبة جداً، وخصوصاً بالنسبة إلى زوجتي. أما بالنسبة إليَّ، فالأمور لم تتغير كثيراً. كنت أذهب منذ الصباح الباكر إلى المستشفى وأعمل فيه بلا انقطاع حتى الساعة الثامنة مساء، باستثناء الوقت الذي يستغرقه تناول طعام الغداء في كافيتيريا المستشفى. وكانت زوجتي تبحث عن عمل، لكن القوانين الأميركية الصارمة لم تسمح لها بذلك، فاقتصر عملها على رعاية أطفال بعض زملائي الأطباء الذين كانوا يعملون هم وزوجاتهم طوال النهار وكانوا يحتاجون إلى من يرعى أطفالهم. وكنا نسكن في غرفة صغيرة قرب المستشفى في مؤسسة للجانحين والجانحات. وقد اخترنا هذا المكان الخطر لأنه كان يؤمن لنا السكن وطعام الفطور والعشاء لقاء ثمانين دولاراً في الشهر. وكان الجو مرعباً جداً بالنسبة إلى زوجتي إذ كان الشبان والشابات في تلك المؤسسة يتحرشون بها وأحياناً يشهرون السكاكين لإخافتها، فلم تستطع البقاء في تلك الغرفة ولم أكن أملك القدرة المادية على استئجار مكان آخر. وبعد خمسة أشهر قررنا أن تعود تيريز إلى بيروت لتقيم مع والدتي في منزلنا العائلي وتبحث عن عمل. وبقيت أنا وحدي في الولايات المتحدة مدة سنة ونصف أتابع تخصّصي.

ولا بد من القول في هذا المجال إن حياة العزوبية لم تكن صعبة. فانكببت على الدراسة والأبحاث مما زاد من اهتمام أساتذتي بي فشجعوني على البقاء في الولايات المتحدة الأميركية لأتسلم مركزاً مهماً في إحدى الجامعات الأميركية. وكان معلمي الأستاذ جونز من أهم رجالات الطب في الولايات المتحدة آنذاك وكانت له علاقات متينة بأهم مراكز العلم. ولم أكن أعلم أنه، خلال سفراته لإلقاء المحاضرات في العديد من الجامعات ولحضور المؤتمرات الطبية، كان يذكر للأساتذة أنه يعرف شاباً من لبنان سينهي اختصاصه في الجهاز الهضمي، عنده مؤهلات ومقدرة تخوّله أن يتسلم مركزاً هاماً في أية جامعة.

وقبيل سفري إلى بيروت انهالت عليَّ الرسائل من جامعات عديدة، منها جامعة «فاندربلت» في ناشفيل بولاية تينيسي، وجامعة «وسترن ريزرف» في كليفلند أوهايو، وجامعة «شيكاغو» تدعوني فيها إلى زيارتها لنبحث في احتمال تسلم مركز هام في قسم الجهاز الهضمي. ولا بد من القول في هذا المجال إن الاختصاص في جامعة «هارفرد» ومستشفى «ماستشوستس جنرال» في بوسطن كان يفتح المجال الواسع لتبوّء أي منصب أكاديمي في الولايات المتحدة في ذلك الوقت. وبالفعل زرت كل هذه الجامعات وحصلت فيها إمّا على المركز الأول أو على المركز الثاني في قسم الجهاز الهضمي مع معاش مغرٍ، مع تأمين عمل لزوجتي ووعد بتحقيق كل ما أطلبه. فانتابتني الحيرة وأصابني القلق الشديد إلى أن قررت أنّ تعلقي بالوطن وبرأس بيروت هو أهم من كل الاعتبارات الأخرى. والآن، وبعد أربعين عاماً، وبالرغم من كل ما حدث، لم أندم على هذا القرار إلّا في المرحلة الأولى من رجوعي إلى بيروت حيث أصابتني

حالة انسحاق لإدراكي الفرق الشاسع في المستوى الأكاديمي بين جامعة هارفرد والجامعة الأميركية في بيروت. فقررت العودة إلى الولايات المتحدة لأنهي هذه المعضلة وأستشير معلمي في ما يجب عمله. بقيت في بوسطن ثلاثة أشهر شفتني من هذا الارتباك ورجعت إلى بيروت مرتاحاً لقراري بالعودة.

وقبل رحيلي من بوسطن جلست مع معلمي الأستاذ شستر جونز جلسة طويلة زوّدني فيها بتوجيهاته القيّمة. ومما قاله لي: «اذهب إلى لبنان واخدم بلدك، لأن بلدك يحتاج إليك. ففي الولايات المتحدة الكثير من أمثالك الذين أتموا التخصص العالي في الجهاز الهضمي، ولكن لبنان يفتقر إلى مثل هذا التخصّص». وربما كان على حق، ففي سنة ١٩٥٧ لم يكن في لبنان سوى طبيب واحد أتمّ اختصاصه في الجهاز الهضمي. ومما قاله أيضاً: «لا تركض وراء المال، فالمال سوف يركض وراءك. وركّز على حالة مرضاك، وانس الشأن المادي. عندما تصل إلى مفترق حرج في القرار أو العلاج استعن باستشارة غيرك ولو كان أصغر منك سناً. ولا تتفرد بالقرار. تعامل مع كل مريض كأنه أقرب الناس إليك، وحين تقرر العلاج اسأل نفسك إن كان هذا المريض أباك أو أمك أو ولدك فهل كنت تصف العلاج نفسه؟ تابع اهتمامك في الأبحاث العلمية والعلوم الطبية الأساسية، فأنت جئت إلى هارفرد لتتعلم كيف تجرى الأبحاث بطريقة علمية. فالفرق بين الطبيب والطبيب الأستاذ هو مدى اهتمامه بالأبحاث والعلوم الأساسية التي هي ركيزة علم الطب. ركز اهتمامك على التعليم، فلن تتعلم إذا لم تعلّم وستجد أن لذة التعليم تفوق كل اللذات الأخرى».

وثيقة حاولت تطبيقها قدر المستطاع. وقد أخذت مني جهداً كبيراً

وأعطتني بالمقابل سعادة لا تفوقها سعادة، فضلاً عن الراحة النفسية والاستقرار. قد يبدو هذا الكلام ساذجاً للبعض، لكن تلك النصائح كانت الثوابت الأساسية التي رسمت منهج عملي الطبي السريري والأكاديمي على مرّ السنين.

بدأت ممارسة الطب في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت في أول تموز ١٩٥٧، وكنت في التاسعة والعشرين من العمر وأصغر عضو في هيئة التعليم في كلية الطب. وكان فرحي كبيراً إذ أصبحت زميلاً لعمالقة الطب آنذاك كالدكتور جورج خياط ويني قومشيان ومنيب شهيد ورياض طبارة.

وبالرغم من أنني كنت مدرّساً غير متفرّغ في كلية الطب، أي بدون أي راتب، فلقد قرّرت منذ البداية أن أقضي نصف نهاري في المختبر حيث تجرى الأبحاث، والنصف الثاني في العيادة لمعاينة المرضى. وكنت أقوم بالأبحاث في مختبر قدّمته إليَّ دائرة الكيمياء الحيوية في كلية الطب. ولن أنسى صديقي الدكتور أسامة الخالدي الذي كان له الفضل الأكبر في تدريبي ومساعدتي، فأفكاره الخلّاقة وذكاؤه الخارق ساهما إلى حد بعيد في تصوّر وتصميم العديد من الدراسات الطبية التي قمنا بها معاً. وكانت تلك الحقبة من أسعد أيام حياتي إذ كانت حافلة بالمناقشات العلمية الشيّقة. وبلغ التكامل بيني وبين الدكتور أسامة أعلى مستوى. فهو يرى المشكلة من منظورها الكيميائي البحت، وأنا أرى لها مخرجاً تطبيقياً قد يؤدي إلى منفعة سريرية.

أما النصف الثاني من النهار فكنت أقضيه في العيادة، أي في بيتنا في شارع جان دارك حيث كانت والدتي تراقب المرضى من فراشها

يدخلون إلى عيادتي فتعدّهم واحداً واحداً، وعلى وجهها بسمة الفرح والفخر والنصر لأن ابنها منير قد أصبح طبيباً مشهوراً يؤمّه العديد من المرضى من لبنان ومن جميع الأقطار العربية. والطريف في هذا المجال أن والدتي لم تفهم لمَ لا أتفرغ لهذا العمل الذي يدر المال علينا فيتضاعف بذلك مدخولنا، بدلاً من تضييع الوقت في المختبر في دراسة الفئران والجرذان.

وكل مساء بعد انتهاء عملي في العيادة كنت أدخل إلى غرفتها لأستمع إلى أسطوانتها المعهودة: «يا ابني، حدا بيصحلّوا يطلّع فلوس بيهرب تيقعد مع الفيران والجرادين؟ ويا ريت بيطلعلك شي منهن غير ريحتهن». وعبثاً حاولت إقناعها بأهمية الأبحاث وبلذة القيام بها. فهذه المرأة التي ذاقت الأمرّين في الحرب العالمية الأولى عندما شاهدت الناس يتساقطون موتى من الجوع على باب المطعم في شارع جان دارك، والتي كانت مسؤولة بعد وفاة زوجها عن ستة أولاد خلال الحرب العالمية الثانية، كان للمال عندها شأن كبير لأنه يقيها الفقر والجوع. وهي لم تستطع استيعاب هذه البدعة في التفكير، بالرغم من كونها سيدة متعلمة، إذ هي من أوائل المتخرجات من كلية البنات في بيروت. وحاولت عبثاً إقناعها بأنّ الأبحاث والإنتاج العلمي تمنح لذة تفوق كل اللذات، وبأن ابنها سوف يصبح يوماً من مشاهير العلماء بنتيجة هذه الأبحاث.

عندما كنت أدخل عليها بعد انتهاء دوام عيادتي كنت أراها في الفراش عاصبة رأسها بمنديل أسود للتخفيف من الصداع نتيجة ارتفاع الضغط عندها، فأبرز لها مازحاً الدفتر الذي كنت أدوّن عليه نتيجة أبحاثي في آلية امتصاص الكوليستيرول من أمعاء الفأر، وعلى غلاف هذا الدفتر عنوان كبير مكتوب بالحبر الأحمر هو «من

بيروت إلى استكهولم». وقد فسرت لها أنّ هذا العنوان يعني أنني قد أكون بعد ربع قرن من العلماء المرشحين لجائزة نوبل في الطب. كل هذا لم يكن يغريها إذ كانت تجيبني: «يا ابني هيدا ما بيطعمي خبز وبعد خمس وعشرين سنة بيموت حماري وما بينبت حشيش».

ولم يمضِ شهران على مزاولتي المهنة في بيروت حتى عرف بوجودي الكثيرون، وازداد عملي وأصبحت أنعم بمدخول يخوّلني الانتماء إلى نادي الميسورين. وتحققت كلمات معلمي الدكتور جونز عندما قال لا تركض وراء المال فسيركض هو إليك.

ولا بد في هذا المجال من ذكر التقلبات النفسية التي مرّت عليَّ في هذه المرحلة الانتقالية من العبور من سني الفقر النسبي والحسابات الدقيقة للمدخول والمصروف، إلى مرحلة البحبوحة المادية، فبعدما كنت أحسب الحسابات الدقيقة لأدخل مطعم فيصل وأطلب صحناً من الفريز مع كريم وهو قمة ما كنت أشتهيه آنذاك، صرت أنادي الأصدقاء ليشاركوني في هذه الوليمة. وبعدما كنت أنتظر أن يضجر أخي الكبير ميشال من لبس بنطلونه بعد مرور السنين لكي أستعمله مجدداً مع بعض التعديلات، صرت أذهب بكل جرأة وفخر إلى الخياط جورج أبو رجيلي قرب مطعم العجمي لأنتقي الكوبونات وأطلب منه أن يأتي إلى البيت للقياس، لأن وقتي لا يسمح بالنزول إلى البلد. وكانت لذّتي الكبيرة أن أقول له: «خيّط لي بدلتين معلم جورج وأرسل الحساب إلى المكتب»، من دون مفاصلة على الأسعار.

هذه النزعة «النوفوريشية» كانت بمثابة انتقام من الماضي أو كانت

انتصاراً عليه وبرهاناً على أني رجل ناجح ونجم ساطع. لازمتني هذه العقلية بضع سنوات، ثم لم ألبث أن اكتشفت سخفها مثلما اكتشفت سخف تصرفي العاطفي في سني المراهقة.

بقيت أعمل في الأبحاث مع الدكتور أسامة الخالدي والدكتور إبراهيم الدر اللذين لولا تشجيعهما وتوجيهاتهما لما كنت استطعت الاستمرار في الأبحاث الأساسية. وكنت أبذل مجهوداً كبيراً لأن نوعية هذه الأبحاث تتطلب معرفة دقيقة بالعلوم الأساسية كالكيمياء العضوية والحساب والإحصاء التي أجبرت على درسها مثل الطالب المبتدىء لكي أتماشى مع متطلبات البحث.

استمرت هذه الحقبة السعيدة عشر سنين، أي لغاية سنة ١٩٦٧، إلى أن جاءت النكبة أو النكسة أو الكبوة أو سمّها ما شئت. وهزيمة سنة ١٩٦٧ كانت أشد وقعاً عليَّ وأكثر إيلاماً من هزيمة سنة ١٩٤٨. ففي حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ كنت شاباً في العشرين من العمر، طموحاً، مؤمناً بالعرب والعروبة والوحدة العربية ومتفائلاً بأنه سيأتي اليوم الذي ينتصر فيه الحق فيهزم الصهاينة وتتحرر فلسطين. وبعدها جاء جمال عبد الناصر ليؤكد تفاؤلي، فكان منقذ العرب والقائد العظيم الذي أعطانا جرعة كبيرة من الأمل، وأرجع إلينا الثقة بالنفس، فتأكدنا أن الأمة العربية تملك القدرة الكافية لتحقيق النصر.

هزيمة حزيران ١٩٦٧ كانت محطة تغيير جذري في تفكيري ونظرتي إلى العرب والعروبة والقومية العربية وقادتها وكل ما كنت أصبو إليه من آمال رومنطيقية عن مستقبل أمتنا الباهر. فالأكاذيب المفضوحة والبلاغات الوهمية والتصريحات الدونكيشوتية التي

سمعناها طوال أذلّ خمسة أيام في تاريخنا الحديث، سرعان ما عرّتني من كل ما كنت ألبسه من أحلام عن الأمة العربية ووحدة الصف العربي والقدرة العربية على دحر العدو الصهيوني. وكان أول رد فعل لي للتخفيف من هول الهزيمة وذلها هو ذهابي إلى الأردن مع مجموعة من الشبان والشابات كنت أجتمع بهم في دائرة العلوم الاجتماعية في الجامعة الأميركية حيث كنا نتداول الحديث عن النكبة. فألفّنا فرقة قوامها الأستاذ بيتر دود والدكتور حليم بركات مع هذا الفريق وعملنا على مساعدة الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين الذين هربوا من الاحتلال للضفة الغربية من فلسطين. وبقيت في أول مرحلة أسبوعين في الأردن أعمل مع العديد من المؤسسات مثل اليونيسيف والصليب الأحمر الدولي والهلال الأحمر الفلسطيني والإيراني، التي أمنت آلاف الخيم لإيواء اللاجئين. وقد صدر نتيجة هذا الاختبار كتاب باللغة الإنكليزية للأستاذين دود وبركات يدعى «نهر بلا جسور» يصف معاناة اللاجئين واختباراتهم في تلك المرحلة التعيسة من التاريخ العربي. وكان لهذه التجربة وقع كبير عليَّ مما شدني بعزم وتصميم لمؤازرة الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية. وكان من المنطقي والعمليّ آنذاك أن أجدد الاتصال بصديق وزميل الدراسة الدكتور جورج حبش المقيم في عمان والذي كان آنذاك أميناً عاماً للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. فأجريت اتصالاً به عبر أصدقاء مشتركين واجتمعت به وعرضت عليه ما أستطيع عمله لمؤازرة الشعب الفلسطيني. واقترحت عليه أن أعمل مع الصديق أسامة الخالدي للمساهمة في الأمور الطبية الخاصة بالجبهة الشعبية، إضافة إلى مساعدتهم في جمع المال والتبرعات. بقيت لمدة ستة أشهر أذهب كل أسبوعين ثلاثة أيام إلى عمان لأزور الدكتور حبش وكبار معاونيه آنذاك ومنهم الصديق هاني الهندي. وكنت أنزل كل مرة بفندق «الأردن»، وأذهب في

المساء إلى مقر الحكيم. ولسذاجتي لم أتخذ أياً من الاحتياطات الأمنية أثناء تنقلاتي في عمان، ولم أحسب أن المخابرات الأردنية كانت لي بالمرصاد. علمت ذلك بعد سنين عديدة عندما ذهبت إلى الأردن ممثلاً للجامعة الأميركية في بيروت في لجنة كان عملها جمع التبرعات من العالم العربي لمساعدة الجامعة. ولحسن الحظ أنّ السيد علي غندور، مدير شركة الطيران الأردنية آنذاك وعضو مجلس الأمناء في الجامعة الأميركية وأحد الأعضاء في هذه اللجنة المالية للتبرعات، كان على علم بمجيئي، فاستقبلني ممثّله استقبالاً حاراً إلى أن وصلت إلى حيث يجري التدقيق في الجوازات، فقامت السلطات باحتجازي من الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى الساعة السابعة مساءً، ولولا العناية الإلهية وتدخل السيد علي غندور لما كنت استطعت كتابة هذه الكلمات، إذ تبيّن لي أن اسمي موجود على اللائحة السوداء لكوني من «الناشطين» في أعمال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وبعد عدة سنين حُذف اسمي من اللائحة السوداء بعد تدخل الأخ الصديق الدكتور كمال الشاعر.

ومن الأعمال التي قمت بها لأزيل عني كابوس النكبة ذهابي إلى مدينة جدة في المملكة العربية السعودية لجمع المال والتبرعات لمساعدة الشعب الفلسطيني. وكانت علاقتي آنذاك برجالات المملكة متينة جداً. وأخصّ منهم الصديق الأستاذ عمر السقاف وزير الدولة للشؤون الخارجية، الذي اتصلت به وطلبت منه المساعدة في أن يرتّب لي أسبوعاً في جدة أعالج فيه المرضى على أن يقدّم ريع هذه المعالجات لمساعدة الشعب الفلسطيني. وكانت كذبتي البيضاء آنذاك أني لم أذكر أن هذا المال سيذهب إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لأن هذه الجبهة لم يكن مرغوباً فيها من جانب الحكم السعودي. ونظراً لصداقتي الحميمة مع السيد عمر الذي ساهم

بإعلام الصحف والتلفزيون عن مجيئي إلى جدة والغرض منه، تمكّنت في مدة عشرة أيام من جمع كمية لا بأس بها من المال ما لبثت أن حوّلتها إلى دنانير أردنية وذهبت بها إلى عمان وأعطيتها لصديقي الدكتور جورج حبش. ولم يمضِ على ذلك أشهر حتى علمت المخابرات السعودية بالأمر وأصبحت أيضاً ولمدة عشر سنين شخصاً غير مرغوب فيه في المملكة العربية السعودية، إلى أن تدخل السيد عمر السقاف وشطب اسمي عن اللائحة.

ومن ناحية أخرى كان لهذه الهزيمة أثر كبير على إنتاجي العلمي حين أدركت عدم جدوى أو تفاهة أبحاثي عن آلية امتصاص مادة الكوليستيرول من أمعاء الفأر بعد مشاهدة القتلى والجرحى والمشردين واللاجئين وجميع مظاهر القهر والذل اللذين أصابا شعبنا في فلسطين. ومن ذلك اليوم إلى الآن اقتصرت نشاطاتي العلمية على الأبحاث السريرية أو التطبيقية بعيداً عن كل النظريات والعلوم الأساسية. قرار اختلف كثيراً عن الوثيقة التي زوّدني إياها الدكتور جونز في بوسطن. لكن الدكتور جونز لم يحسب حساب العدو الصهيوني في المعادلة وتأثيرها على هذا الشاب المثقف اللبناني الذي آمن بالعرب والعروبة والوحدة العربية.

الفصل السادس

دولة رأس بيروت

من الصعب أن أكتب سيرتي وأتحدث عن العوامل التي ساهمت في تكوين شخصيتي من دون الحديث عن البقعة الجغرافية التي ولدت فيها وعشت منذ الصغر: رأس بيروت.

فرأس بيروت، أو دولة رأس بيروت الممتازة، هي قطعة من الأرض في غرب بيروت، يحدها شمالاً وغرباً البحر الأبيض المتوسط، من عين المريسة وميناء الحصن إلى صخور الروشة. وتمتد جنوباً إلى الشارع الذي يمرّ أمام فندق البريستول، وشرقاً إلى منتصف شارع كليمنصو. وأهم معالمها الجامعة الأميركية التي يحدها شارع بلس جنوباً والبحر الأبيض المتوسط شمالاً. أمّا عاصمة هذه الدولة فهي تقاطع شارع بلس وشارع جان دارك. وأمّا أهم شوارعها فشوارع الحمراء وعبد العزيز والمكحول والمعماري وغيرها.

اختلف الباحثون في تاريخ المنطقة على السؤال التالي: هل رأس بيروت كما نعرفها هي نتيجة وجود الجامعة الأميركية فيها، أم أن الجامعة الأميركية ما كانت لتنمو وتصبح هذا الصرح العلمي الليبرالي العتيد لولا التركيبة الاجتماعية الفريدة لأبناء رأس بيروت؟ فالمناخ البشري الرأس بيروتي، إذا صحّ التعبير، كان عاملاً أساسياً في قبول هذا الزرع الذي رُفِض أو تعثّر نموّه في أماكن أخرى من الشرق الأوسط. ومهما كانت الحقيقة فإن رأس بيروت ساهمت في نمو الجامعة الأميركية، كما أن للجامعة الفضل الكبير في صقل تركيبة رأس بيروت الفريدة.

كنت قد ذكرت سابقاً أنني ولدت في الطابق الثاني من البناية التي تقع في أول شارع جان دارك، هذا الشارع الجميل الذي يمتد من شارع بلس وصولاً إلى شارع الحمراء. وبعد مرور سبعين عاماً ما زال هذا الشارع على حاله باستثناء قيام بعض الأبنية الجديدة التي تحاول تشويهه. ففي أوائل الأربعينيات لم يكن شارع جان دارك مزفتاً، ولم تكن له أرصفة، وفي فصل الشتاء كان السيل يتدفق في حفرة على جانبه الأيسر وصولاً إلى شارع بلس حيث تصرّف المياه في مجارير قرب الخط الحديدي لحافلات الترامواي.

والأبنية في شارع جان دارك كانت تتألف من طابقين أو ثلاثة، وكان بيتنا مؤلفاً من ثلاثة طوابق. والمنظر من الطابق الأول كان خلاباً إذ كنا نرى البحر والجبل من عاليه جنوباً إلى جبال المتن. ومن ذكرياتي الحلوة أنني كنت أعرف سكان كل بيت على جانبي شارع جان دارك ابتداء من منزلي ووصولاً إلى شارع المقدسي. فعلى اليمين كان يقطن الجندي الجزائري المتقاعد فرنان وزوجته فكتوريا المعروفة بصوتها الجميل، ويليهما أبو اسطفان الصوراتي

وزوجته الإكوادورية يهوديت التي هاجرت من الإكوادور منذ أكثر من نصف قرن وما زالت تجهل اللغة العربية، ثم عائلة الأخوين بشارة وجبران البخعازي اللذين اشتهرا بسندويشاتهما الطبية في دكانهما مقابل الجامعة الأميركية، وبعدهما اللحام السوري أبو بكري الذي كان ينعم بثقة كل نساء الحي، وعائلات حاوي وخوري وعرمان وخلف، وعائلة طقوش الكبيرة التي كانت تملك فرناً في شارع بلس يزوّد كل رأس بيروت بالخبز، وعائلتا الأستاذ جريس المقدسي والأستاذ أنيس والد الصديق سمير المقدسي، وعائلة بارودي وعائلة إيليا وعائلة ربيز وغيرها. وكانت العادة في تلك الأيام أن تبقى أبواب البيوت مفتوحة لأنه كان من المعيب أن يأتي زائر إلى بيت أحدهم ويجد الباب مقفلاً. وأذكر والدتي وهي تقول لي: «صار فيك تسكّر الباب يا ابني لأنّو ما يعتقد حدا رح يجي يزورنا بعد الساعة ثمانية». والزيارات العائلية كانت تقتصر على شرب القهوة أو الليموناضة مع قطعة صغيرة من مربى البوصفير المجفف، فلا موائد ولا ولائم ليلية.

والجدير بالذكر أن رأس بيروت آنذاك كانت تنتهي عند حدود شارع المقدسي اليوم. وكان والدي يمنع أخواتي من الذهاب إلى أبعد من ذلك، أي إلى شارع الحمراء، المغطّى بالتراب الأحمر وبشجر الصبير، إذ كان يتفرع منه زواريب عديدة لا يخلو المشي فيها من الخطر.

شارع جان دارك كان عالمي الخاص. في النهار كانت تنتشر الروائح العطرة وأصوات أهل الحيّ وأناشيد بائعي البضائع على العربات. أما الليل فكان هادئاً لا مكان فيه لهدير السيارات، إذ لم يكن في رأس بيروت سوى القليل منها. وبعد منتصف الليل كنا نسمع الأذان من

الجامع الموجود قرب كركول حبيش، وكان صوت المؤذن جميلاً.

يوم الأحد كان يوماً خاصاً. كنا نستيقظ على صوت «الزعيم» الذي كان يلبس مريولاً أبيض يصل حتى كاحليه ويجرّ عربة فيها قهوة وحليب وسحلب. كان يمرّ الساعة السادسة صباحاً ويقدّم السحلب مع كعك «القرشلّي». ثم يليه بائع الخضرة صائحاً «أصابيع الببّو يا خيار»، «وشتل البندورة يا غندورة شاب العايق زمانو». ثم يعلو صوت بائع آخر: «معانا صحون، معانا كبايات، معانا فناجين قهوة». ثم يمر بائع النوفوتيه اليهودي إيزاك بلهجته الشامية صائحاً: «تنتنا وتخريم، حمرة للشفاف، دبابيس شعر، كحل، خيطان، إبر، كشاتبين، قطع قماش وحرير ودانتيل، وكلسات فالدكوز». وكان إيزاك يعرف نساء الحي واحدة واحدة.

في الصيف، كان بائع الحلويات يمرّ بعد الظهر ومعه البوظة والإسكيمو والفريزكو ــ وهو مزيج من الثلج والعصير. أما في الشتاء فكان يبيع الكستنا والجوز والترمس والمخلوطة. وعندما يبيع المخلوطة كان يصيح: «عبّي الجيبة مخلوطة ومسّح تمّك بالفوطة وخلّي إمك مبسوطة». أما «أم قليبانة» خضرة ومليانة والزعتر الأخضر فكانا من اختصاص النوريّات اللواتي يحملن البضاعة في كيس جنفيص كبير.

وكانت العادة أن يلحق أولاد الحي بالباعة واحداً واحداً ويرددوا الأقاويل التي يغنونها. ويوم الأحد تمرّ النورية مع الدربكة فيخرج الناس إلى البلكونات بثياب النوم. وكانت النورية صغيرة السن، يراوح عمرها ما بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، ترتدي فستاناً طويلاً غامق اللون طويل الكمّين، وعليه زهور ملوّنة. كانت مكحلة

العينين حمراء الخدّين، وحين تبتسم تظهر أسنانها الذهبية. كان يرافق هذه النورية رجلان، أحدهما أخوها والآخر أبوها. كانت ترقص على أنغام الدربكة ثم تمدّ الطبلة لتلمّ القروش التي يرميها لها المتفرجون من البلكونات. بعدها، يأتي رجل يحمل الدربكة ومعه سعدان يلبس تنورة قصيرة واسعة وصدره عار إلّا من صدرية مزهرة. وكان السعدان مربوطاً بجنزير يقوده به صاحبه. كان صاحبه يسأله: كيف تمشي القمورة؟ فيأخذ السعدان نظارتين سوداوين ويضعهما على أنفه «ويتشخلع». ثم يسأله: كيف تنام الختيارة؟ فيستلقي السعدان على بطنه وينام ويشخر. وأخيراً يسأله: كيف ترقص النورية؟ فيأخذ منديلاً من جيب معلّمه ويضعه على خصره ويرقص مثل النورية. وقبل انتهاء العرض يرسل السعدان قبلات في الهواء ويأخذ الدربكّة ليلمّ الفلوس.

ومن المشاهد التي لا أنساها مشهد المرأة الفرنسية التي كانت تدّعي أنها مدام الجنرال غورو، وكنا نحن نسمّيها «أم شراطيط» لأنها كانت «تدحش» أوراق الجرائد في صدرها. كانت مدام غورو سمينة، دائماً في اللباس الأسود، شعرها منكوش ومصبوغ باللون البرتقالي، ووجهها مبودر ومحمّر يذكّرك بالمهرجين في السيرك. فكنا نقترب منها لمعرفة الأشياء التي تخزنها في صدرها ونقرصها وندفشها حتى تقع محتويات الصدر فتغتاظ وتشتمنا بالفرنسية. وعندما يسمع الجيران صراخها يطلّون من البلاكين ويصرخون فينا: «يا ولاد يا شياطين، اتركوها وروحوا على بيوتكم». فكنا نتفرّق، بينما المدام غورو تلملم ما وقع من صدرها.

وبالإضافة إلى مدام غورو كان هناك شخصيات طريفة مثل «معزّل الششامي» الذي كان يعمل أيضاً «شقّاف الحطب». يمرّ يومياً منادياً

بمهنتيه إذ لم يكن في رأس بيروت آنذاك مجارير. أمّا وسائل التدفئة فكانت إما الحطب في المداخن أو الفحم في المناقل. وكان «شقّاف الحطب» ذا شارب كبير وشعر كثيف، على رأسه «قبّوعة» كالتي يلبسها الصيادون في سفاري أفريقيا. يرتدي شورتاً واسعاً، وقميصه دائماً مفتوح ومعقود عند البطن. ساقاه وسختان وعليهما آثار جروح قديمة، وعلى كتفه فأس لتشقيف الحطب. كل هذه المظاهر الكئيبة تمثّلت في روح مرحة جداً. فالابتسامة والضحك لا يفارقانه. يتكلم مع نفسه، والصغار يلحقونه ويسألونه: كم الساعة؟ فيرفع قبعته ويضعها على قفاه ويقول: اقرأوا الساعة.

وكما في أي شارع محترم، كان لنا «المجدوب» نحن أيضاً. اسمه أمين، رأسه مبلطح، وشعره محلوق على الزيرو. يمصّ إصبعه إلى أن يصل إلى كفّه. له أخت تهتم به إذ لم يكن هناك من مؤسسة تهتم بالمجانين آنذاك سوى مؤسسة العصفورية. كان أمين في الثلاثين من العمر، يلبس شورتاً طويلاً وقميصاً ملوناً. وعندما يخرج من البيت في المساء مع أخته يصرخ كالحيوان الجريح، فيخاف الأولاد الذين يتجمعون حوله ويصرخون «إجا المجدوب» إلى أن يأتي رجل من أهل الحي ويقود أمين إلى بيته.

أمّا رجالات الحيّ فمن أهمهم المختار جرجي نقولا ربيز، والد المختار الحالي كمال ربيز. كان يسكن في شارع جان دارك عند مفرق شارع المكحول ويدير أعماله من مكتبه الملاصق للبيت. كان محبوباً من الجميع ويخدم الجميع بلا تفرقة. زوجته الشيخة أو المختارة لم تكن تقل أهمية عنه. فشخصيتها قوية، وهي محبة لكل الناس. أذكرها جالسة في البيت معظم الأوقات على الكنبة التي تشرف على الطريق، لابسة قميص النوم أو الروب، تدخن أركيلتها وتراقب

الناس المارين في شارع جان دارك. عندها خدم يعتنون بالأولاد، وصالونها لا يخلو من الناس الآتين ليطلبوا خدمة من المختار فتحلّ هي معظم مشاكلهم. وفي عيد البربارة كان كل أولاد الحي يأتون إلى بيت المختارة لأنها كانت معروفة بكرمها، فيرقصون أمام البيت فتوزع عليهم القمحية والحلويات، وأحياناً كانت تعطيهم بعض القروش، فيغني لها الأولاد «أركيلة فوق أركيلة صاحبة البيت زنكيلة». وإذا رفضت صاحبة بيت ما استقبال الأطفال وبخلت عليهم بالحلويات، لم يكن هؤلاء يترددون في أن يغنوا لها: «بلاطة فوق بلاطة صاحبة البيت ضرّاطة».

ألعاب الأولاد في تلك الأيام كانت الغميضة، ولعبة «الإكس» التي كان كل ولد يحمل استعداداً لها حجراً من الرخام المربع في جيبه، ولعبة البوليس والحرامية التي كنا نركض فيها واحداً تلو الآخر ونصيح: «كرشك عالي يا خالي، كرشك واطي يا خالي».

ومن معالم شارع جان دارك السيد فانوس صاحب محل الخضرة. يفتح بابه الحديدي كل يوم الساعة السادسة صباحاً فيوقظ كل أهل الحي، ثم يخرج صناديق الفاكهة والخضرة ويرش البقدونس والنعنع والكزبرة بالماء. عائلة فانوس كانت تسكن فوق المحل، وكان لفانوس ابن اسمه زياد له من العمر سنتان. كان زياد يستيقظ باكراً فيقف على البلكون ويُفنتر على الخضرة، إلى أن كشف أمره ومسك بالجرم المشهود، فَعَلَت صرخات ربات البيوت. لكن هذا الأمر لم يمنعهن من شراء الفاكهة والخضرة من فانوس. كانت لكل امرأة في شارع جان دارك سلّة تدليها من البلكون فيأتي الولد الذي يعمل في دكان فانوس فيأخذ الطلب ويضع الخضرة والفاكهة في السلّة، فتقوم المرأة برفعها، مما يوفّر على الولد الصعود والنزول على

الدرج، وعلى ربات البيوت الذهاب إلى السوق.

ولم يكن دكان ميشال الأبرص في شارع المكحول يقل أهمية عن دكان فانوس. «والأبرص» لقب لازمه لأن شعره أحمر اللون، وفي فمه سيجارة بافرا لا تفارقه. عنده كل ما يشتهيه الأولاد من لعب وأقلام ودفاتر وبونبون، وكذلك النعّومة المصنوعة من القضامة الصفرا المطحونة مع السكر الناعم، وكانت ملفوفة في ورق الجرائد على شكل قمع. ويتحوّل دكان ميشال المقابل للكنيسة الأرثوذكسية بعد الساعة الرابعة إلى مقر للعب الطاولة حيث يتجمع رجال الحي، وفي الساعة السابعة مساء يبدأ شرب العرق مع المازة المؤلفة من الترمس وحصوص البرتقال.

وهناك مهن جوالة انقرضت في عصرنا الحاضر. فأين المنجّد اليهودي الذي يأتي إلى البيت مع مساعديه لينجد الفرش، والمبيّض الذي يعمل على تبييض الطناجر، والكندرجي الجوال «صلح لاستيكو» الذي يغير نعلاً أو نصف نعل حسب اللزوم؟ كما أن بائع السمك الذي بترت أصابعه بالديناميت يأتي يومياً مع صيده في سلة أنيقة مفروشة بأوراق الزنزلخت الخضراء وفيها تشكيلة من الغبّص والجربيدن والمليفه واللقّز الرملي والصخري.

أما مساء شارع جان دارك فكان هادئاً، لا أصوات فيه، ولا عجقة سيارات. وفي الصيف تمتلىء الشرفات بالسكان الذين يخرجون لتنشق الهواء وروائح الياسمين التي كانت تنبعث من الحدائق الصغيرة في الشارع. فلا راديوات ولا تلفزيونات. كلّ ما في الأمر أناس تراقب أناساً، فمَن زار مَن، ومن يمشي مع من، إلى ما هنالك من قصص حميمة لأهل الحي. وبعد الساعة التاسعة يضع أهل الحي

الشراشف على درابزين البلكونات ليمنعوا الناس من رؤيتهم إذ إنهم يفرشون الفرش في الهواء الطلق، وينامون خارجاً حتى الفجر ثم يدخلون الفرش صباحاً إلى المنزل.

لحام الحي كان أبو بكري، وكل ربات البيوت كنّ يلاطفنه ليعطيهن أحسن ما عنده من اللحم. شكله بشع، قامته قصيرة، رأسه كبير وأصلع، يلبس سروالاً أسود. وكان يرعب الأولاد عندما يذبح الدجاج في الشارع. ولده بكري كان من عمري، وكنا نلعب معاً بالكلّة قرب المحل إلى أن أصبح من كبار اللحامين في رأس بيروت. وأما حارس الحي أبو رفيق فكان من أحب الناس إلينا. يمرّ بنا كل ليلة عند ابتداء دورته ويشرب القهوة في مطعم والدي ويسرد لنا مغامراته. ثم يمضي الليل يراقب أقفال المحال ويوقظ أصحابها إن نسوا إقفالها. وفي آخر السنة يمرّ على البيوت واحداً واحداً ويأخذ «البسترينة».

ومن معالم الحي أيضاً سامي العبد، وهو ولد أسود في الخامسة عشرة من عمره جاء من شاطىء العاج مع أبيه اللبناني الأبيض اللون الذي كان متزوجاً من لبنانية وله ابنتان. وكان سامي يعرف أنه «بندوق» وأولاد الحي يسخرون منه ويصرخون عند قدومه «عبدو عبيد سنانو بيض بياكل قضامة وبيشخ نبيذ». ولحسن الحظ لم يكن المسكين يفهم ما كان الأولاد يرددون.

هذه هي رأس بيروت في الأربعينيات، قرية وديعة هادئة مزروعة بالياسمين وشجر الزنزلخت والتين على أنواعه. وعلى حدودها حقول من الفجل والخس والبقدونس وغيرها من الخضرة. شارع الحمراء الذي اشتهر فيما بعد بالمطاعم ودور السينما والمتاجر الفخمة لم

يكن سوى زاروب أحمر مسيّج بشجر الصبّير ومرتع للطيور كالترغل، مما جعل أهل رأس بيروت يصطادون فيه في المواسم.

كان سكان رأس بيروت عائلة واحدة، يعرفون بعضهم بعضاً، ويُلمّون بمشاكل بعضهم البعض. لا فرق بين فقير وغني، أو مسلم ومسيحي. في الصيف تفرغ رأس بيروت من سكانها إلّا القليل القليل، وفي الشتاء تعجّ بالطلاب من كل أنحاء العالم العربي. وكأنها مدينة مستقلة، فلا حاجة بها إلى سائر أنحاء بيروت. ولا أذكر أننا ذهبنا يوماً إلى الأشرفية أو الجميزة أو البسطة أو رأس النبع أو أي مكان آخر من العاصمة. فكانت رأس بيروت مكتفية بذاتها. لم نكن نغادرها إلّا للذهاب إلى السينما في البرج أو لتبضّع الخضرة والأسماك واللحم من سوق النورية الشهير. والجامعة الأميركية كانت متنزّه أهل رأس بيروت. يتمشون في رحابها ويشاهدون الألعاب الرياضية في ملاعبها ويتمتعون بالتمثيليات التي كانت تعرض في الوست هول ويسبحون في بحرها. وأساتذة الجامعة آنذاك كانوا على اتصال دائم بتلامذتهم، ويعرفونهم واحداً واحداً ويعملون على حلّ مشاكلهم مهما كان نوعها. رئيس الجامعة بيارد دودج، الرجل الوديع، يتمشى في أرجائها بلا حرس ولا مواكبة، يحمل حذاءه بشريطيه ويخرج من باب الجامعة الأساسي ليصبغه عند عمر البويجي، فيتبادل معه حديثاً طويلاً باللغة العربية إبّان صبغ الحذاء. وفي هذه الأثناء تمرّ زوجة دودج لتزور صديقتها الست أدما شماعه وتشرب عندها الشاي، فتتبادلان أطراف الحديث حول المشاكل الرأس بيروتية. إنّ عظمة تلك الحقبة من الزمن تتجلى في بساطتها وصدقها وعفويتها وبراءتها، وهي صفات بدأت تتلاشى عبر السنين.

هذه هي رأس بيروت التي أنجبت جبر ضومط وأسد رستم وأنيس فريحة وجريس وأنيس المقدسي وقسطنطين زريق وشارل مالك وجبرائيل جبور وزين زين وبولس الخولي، ودرس فيها العديد العديد من كبار أصحاب القرار العربي. تركيبتها فريدة لا مثيل لها في أي بقعة أخرى من العالم العربي. صغيرة الحجم، كبيرة التأثير، رائدة في الحرية والعدالة والمساواة والديموقراطية.

بعد حرب ١٩٤٨ لجأ العديد من الفلسطينيين إلى لبنان. وبالرغم من المآسي التي جلبتها هذه الحرب استفاد لبنان من شريحة كبيرة من المثقفين الفلسطينيين، مثل عائلات عفيفي وقعوار وعلمي وبولس وعزام وبرامكي ودجاني وخالدي وصايغ وكاتول وحنانيا وفليحان وغيرهم، مما فعّل البنية التحتية وساهم في تنشيط قطاع الخدمات، فأصبح لبنان بلا منافس، مما درّ عليه أموالاً طائلة. ثم جاءت الخمسينيات وبدأت رائحة النفط تفحّ والمال يتدفق على هذا البلد الجميل الذي عرفه العرب من عراقيين ومصريين وسوريين مصيفاً جميلاً في الأربعينيات. فانتقلت العدوى إلى السعوديين أولاً ثم إلى الخليجيين، فبدأوا بالسياحة فيه ومن ثم بالاستثمار. وكان لرأس بيروت النصيب الأكبر مما أصابته العاصمة من ازدهار. وما شارع الحمراء إلّا نتيجة حتمية لهذا الانتعاش المالي والاقتصادي. فانقلب زاروب الحمراء الذي كانت تحيطه أشجار الصبير والتوت إلى شارع فخم ذي شهرة عالمية بما فيه من مقاهٍ جميلة كان يؤمها نخبة من الأدباء والصحافيين والفنانين وغيرهم من المثقفين، وكانت تدور فيها مناقشات ومداولات حتى ما بعد منتصف الليل في شتى المواضيع.

وأذكر مقهى كافيه دو لابرس حيث كانت تعقد ندوات أسبوعية تبحث فيها مواضيع كانت تعدّ جريئة آنذاك، كالزواج المدني

والعلمنة وحرية الصحافة والقضية الفلسطينية، كما أذكر مقهى الهورس شو الغني عن التعريف، فهو من أشهر معالم شارع الحمراء وملتقى رجال الفن والصحافة.

وأخيراً لا بد من كلمة عن مطعم فيصل، «أم المطاعم»، الذي تخرّج منه العديد من قادة الفكر والسياسة في العالم العربي. وما زلت أذكر نظرات أبو فؤاد صاحب المطعم عبر نظارتيه المتدليتين على رأس أنفه وهو يتفقد أبناءه تلامذة الجامعة الأميركية كالأب الحنون.

ومطعم الأنكل سام غني عن العريف هو أيضاً، وقد يكون الرائد في تقديم وجبات المنحى الأميركي الجديد إلى لبنان. فالهمبرغر والهوت دوغ والقهوة الأميركية والدونات والكلوب ـ ساندويتش لم تكن معروفة في مقاهي بيروت قبل الأنكل سام. ولا أبالغ إذا قلت إن ما نراه الآن من «أميركانا» في المقاهي الجديدة المنتشرة في العاصمة هو تكملة منطقية لفكرة الأنكل سام.

ولم تقتصر هذه الاجتماعات الفكرية على شارعي بلس والحمراء، بل شملت المقاهي الموجودة في منطقة الروشة كالدولتشي فيتا والماي فير حيث كان يتلاقى العديد من القادة العرب من منبوذين أو هاربين من بلادهم ليلجأوا إلى بلد الحرية والديموقراطية لبنان.

فروّاد الدولتشي فيتا، على سبيل المثال، كانوا من السياسيين العرب الذين لعبوا أدواراً كبيرة في بلادهم وأصبحوا غير مرضيّ عنهم، كالسوريين أكرم الحوراني وصلاح البيطار ورشدي كيخيا، والعراقي علي صالح السعدي، بالإضافة إلى العديد من العسكريين الذين قاموا بانقلابات فاشلة، أو كانوا يستعدون للقيام بانقلابات.

وتضم هذه المجموعة ممثلين عن حركات أو أحزاب سياسية كالبعثيين والشيوعيين والقوميين السوريين والموالين لجمال عبد الناصر أو معارضيه. وكانت هذه الجماعات تقضي ساعات طويلة في الدولتشي فيتا وتبقى حتى بزوغ الفجر، مما أثار فضول الرئيس جمال عبد الناصر الذي ظنّ أن هذا المقهى هو للغناء والطرب والرقص والفحش، وممّا جعله يذكر الدولتشي فيتا في أحد خطاباته الشهيرة بطريقة تهكمية، لأنه لم يكن يعلم أن هذا المقهى كان مكاناً للتحليل والتنظير. وتكمن أهمية الدولتشي فيتا أيضاً في أن كل رواده كانوا من الذين حكموا في الأمس أو سيحكمون في الغد، وفي كونه أهم مركز لجسّ نبض الأحداث في العالم العربي. وكان رواده يعتبرون أن كل سياسي في العالم العربي جاهل ما عداهم، وأن كل مثقف عربي باستثنائهم منقطع الصلة بالأخبار. كان أغلبهم من المثقفين، ومنهم من كان لا يفقه شيئاً، لكنهم كلهم كانوا ثعالب سياسية أصيلة.

وكان أهل البلد، أي اللبنانيون، ينظرون إلى رواد الدولتشي فيتا بخوف وقلق. فهم جماعة الانقلابات وأعداء لقمة عيشهم. والحق أن هؤلاء على مختلف مشاربهم وثقافاتهم ونزعاتهم السياسية، كانوا يحبون لبنان وبيروت والروشة حباً عميقاً، وهم مدينون بالكثير لهذه البقعة المريحة من الأرض بعدما ذاقوا الأمرّين من سائر الأنظمة العربية التي هربوا منها. ولعل هذا هو السبب في قول الكثيرين أن لبنان هو أكثر البلدان العربية انفتاحاً وترحيباً.

فبيروت في الخمسينيات وحتى أوائل السبعينيات كانت لؤلؤة العواصم العربية وضميرها الحي الذي لم يعرف التزلف، بل قام صارخاً للحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية. وأصبحت رأس

بيروت عنوان الحرية بلا حدود. فليلى بعلبكي لم تكن لتكتب «أنا أحيا» لولا رأس بيروت ومطعم الأنكل سام والهورس شو. والثورات الفكرية العديدة والجريئة كتلك المتمثلة في كتاب «نقد الفكر الديني» لصادق العظم، ومجلتي «شعر» ومواقف»، ومراكز الفن لوضاح فارس ويوسف الخال، لم تكن لتزدهر لولا المناخ الرأس بيروتي المشجع. ولهذه البقعة الصغيرة من لبنان الفضل الأكبر في نشوء الثورة الشعرية والأدبية الحديثة التي نجدها في كتابات خليل حاوي ويوسف الخال وأدونيس وأنسي الحاج.

ولا بد من كلمة عن المسرح اللبناني في العصر الذهبي، وهو الذي كان رمز الثقافة والجرأة على أعلى المستويات. فريمون جبارة وروجيه عساف ونضال الأشقر وجلال خوري وأنطوان ملتقى ومنير أبو دبس وبرج فازيليان أنجزوا من التحف الفنية ما لم تستطعه أي دولة عربية مجاورة. وكلنا نذكر «عيترون» و«جنازة كلب» و«ديسديمونا» وغيرها من المسرحيات الطليعية.

كل هذا يقودنا إلى الحقيقة المرّة وهي أن العالم العربي لم يكن باستطاعته أن يتحمل هذا العبء من الحرية والديموقراطية المتوافرتين في رأس بيروت، فحاربهما بكل قواه. وما حرب القذرين على لبنان سوى نتيجة حتمية للصراع بين القمع والانفتاح.

الفصل السابع

الحرب القذرة

حوالي الساعة العاشرة صباحاً من يوم الثلاثاء في ١٥ نيسان ١٩٧٥، بينما كنت أحاضر في مستشفى الجامعة الأميركية عن اكتشاف كبير في عالم الطب، أدّى بعد عدة سنوات إلى تصنيع لقاح ضد التهابات الكبد الفيروسية من نوع ب، رنّ جرس الهاتف بقربي، ولم يتوقف الرنين. وبعد عشر دقات أشرت إلى أحد الأطباء أن يردّ على الهاتف ويقول إنني لا أستطيع التكلم مع أحد في هذا الوقت. وبعد ثوانٍ قليلة، قال لي الطبيب إنه من الأفضل أن أردّ لأن المسألة بغاية الخطورة. وضعت الآلة على أذني فسمعت الآتي: «منير، أنا ليلى. ابني سمير أصيب اليوم برصاص رشاش في ظهره، وهو ملقى على الطريق قرب مشاتل عزام في سن الفيل، ولم يستطع أحد الوصول إليه بسبب غزارة الرصاص. شوف شو فيك تعمل». وأغلقت الهاتف.

والدة سمير، ليلى، زوجة إيلي بدارو، هي من أعزّ وأقرب الأصدقاء لي ولزوجتي، ولنا معها صولات وجولات في صالونها الذي كان يعج بالمثقفين والكتّاب وأهل الفن. سيدة أنيقة ذات ذكاء فائق وسرعة خاطر كبيرة. وسمير، ابنها البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، شاب وسيم كان سيتخرج من كلية الهندسة في معهد الهندسة اليسوعي في المكلس بعد شهرين. تركت القاعة مذهولاً وبدون أي تفسير، وتوجهت بسرعة إلى كاراج المستشفى حيث التقيت الحاج عمر فاعور، مدير الكاراج، وقلت له: «حاج، بدنا نروح على سن الفيل وبفسّرلك بعدين». الحاج عمر، الذي اغتيل قنصاً بعد عدة سنوات بالطريقة نفسها التي قُتل فيها سمير بدارو، كان من أطيب الناس وأحبهم إليّ. كنت دائماً أقول لو كان في الإسلام قديسون كما في المسيحية، لاستحق الحاج عمر أن يطوّب قديساً بدون جدل أو تردد. قاد السيارة بسرعة جنونية فوصلنا إلى مستديرة الحايك، وحاولنا الدخول في الشارع الذي يطل على مشاتل عزام، فأوقفنا المسلحون المرابطون على الطريق، لكننا ألححنا عليهم بأن يسمحوا لنا بالوصول إلى مكان الحادث، فقبلوا على مضض وأكدوا لنا خطورة الأمر. حاولنا التقدّم بسرعة، غير أن جانب السيارة أصيب بالرصاص مما منعنا من التقدم نحو سمير الملقى على حافة الطريق بلا حراك. وبعد ساعة خفّت وتيرة إطلاق النار، فجاءت سيارة إسعاف وحملت سميراً إلى مستشفى الجامعة الأميركية حيث عاينته، وكان جثة هامدة. هكذا استقبلت الحرب القذرة. ولا يلومنّني أحد إن قلت في إحدى مقالاتي: «إن الحرب في لبنان هي حرب قذرة، بأياد قذرة، ولأهداف قذرة».

سمير بدارو كان الأول وليس الأخير إذ تواصلت الاغتيالات، واستُهدف الأبرياء، وبقي الجبناء الذين حملوا السلاح مختبئين وراء

رشاشاتهم يقتنصون الناس العزّل كالعصافير. أمام هذه الكوارث والبشاعات انقسم اللبنانيون في الحرب القذرة إلى عدة فئات. فئة صغيرة بقيت في لبنان وشاركت في القتل والسرقة والتهجير والدمار. وفئة غادرت البلاد طلباً للنجاة والسلامة. وفئة ثالثة تمثّل أكثرية اللبنانيين بقيت في لبنان وكانت لها الجرأة الكافية لأن ترفض حمل السلاح والانغماس في قذارات الحرب الدائرة على أرض وطننا.

نحن في رأس بيروت ننتمي إلى هذه الفئة الثالثة. وسرعان ما أدركنا أن النعيم الذي كنا نعيشه في رأس بيروت حيث الإنسان له قيمة بغضّ النظر عن تبعيته لحزب أو زعيم أو لطائفة لم تنعم به المناطق الأخرى. بل إن الحقيقة هي عكس ذلك، فتفشّي الطائفية في لبنان أمر مذهل، وكذلك عمق التخلّف الذي نعانيه. واكتشفنا أن الحلم الذي كنا نعيشه لا يتعدى رأس بيروت، أمّا الباقي فكلّه سراب بسراب.

وبعفوية بريئة تجمّعنا وذهبنا إلى كنيسة السيدة في شارع المكحول وقرعنا الأجراس لنعبّر عن قرفنا وغضبنا ورفضنا للقنص والقصف والقتل على الهوية. وفي اليوم التالي ذهبنا برفقة خوري الروم إلى الجامع في شارع بلس حيث قررنا متابعة العمل. ونحن نعتز بأننا أول من أطلق الدعوة إلى شطب المذهب عن الهوية. وقد لبّى دعوتنا عشرات الألوف من اللبنانيين من جميع الطوائف ومن مختلف المناطق. ونحن نعتز أيضاً بولائنا الكامل للبنان، ولا يستطيع أحد أن يزايد علينا في هذا المجال. كنا نجتمع في مكتب صغير في منطقة المنارة ونتداول في ما يجري في وطننا، بينما الأفرقاء يتقاتلون ويتقاسمون خيرات البلد بواسطة النهب وسرقة المرافق الحيوية كالمرفأ والمطار والبنوك وغيرها.

للوهلة الأولى خطر لي وللجماعة التي أنتمي إليها أن نؤسس حزباً. لكننا أدركنا أن هذا أسوأ ما يمكن عمله في تلك المرحلة الصعبة. وأخيراً قرّ الرأي بيننا على خلق تيار علماني فكري له مقومات أبرزها الاعتماد على الوقائع والحقائق العلمية. وكانت «مؤسسة الدراسات والأبحاث اللبنانية» منبع الفكر الذي يتداوله ويمارسه «تجمع لبنان الواحد» والذي أبصر النور في أوائل الحرب. وعقدنا عدة مؤتمرات في خضم الحرب الأهلية أولها في ٢٠ و٢١ شباط ١٩٧٦، وتداولنا في شؤون العلمنة والهوية العربية. حضر هذا الاجتماع سبعون مؤتِمراً من جميع الطوائف ومن مختلف أرجاء لبنان. وليعذرني القارىء إذا ظن أن وجود مسلمين ومسيحيين يتحدثون عن العلمنة إبان الحرب الأهلية الهمجية حدث عادي لأن من عاش الحرب لا يرى في ما أقوله أي مغالاة في الوصف. وقد نتج من هذا المؤتمر كتاب بعنوان «لبنان الآخر: العلمنة والهوية العربية». كما أن «مؤسسة الدراسات والأبحاث اللبنانية» التي ترأستها بمساهمة فعالة من الصديقة ليلى سليم القاضي والدكتور نجيب أبو حيدر والدكتور حسن مشرفية، عقدت مؤتمراً ثانياً في ٢٤ أيار ١٩٧٧ تناولنا فيه المبادىء الإنسانية والمبادىء الأساسية للدستور اللبناني. ونتج من هذا المؤتمر كتاب «الإنسان والدستور». ونظرتي للإنسان في لبنان انبثقت من تكويني الفكري وتراثي الطبي. فلبنان والإنسان يذكرانني دائماً بغدة هضمية في البطن تدعى البانكرياس. وكلما تعمقت في دراسة النانكرياس يتضح لي أنها أشبه بعبوة قابلة على الدوام للانفجار. ففي هذه الغدة جميع المواد الكيماوية الفعالة لهضم أو طحن أي نوع من المركبات عندما تخرج هذه المواد من مخازنها وتلتقي بأي عضو من أعضاء الجسم، فتفتك به فتكاً ذريعاً، كما يحصل في التهابات هذه الغدة. والسؤال المطروح الآن في عالم الطب: لماذا لا يهضم البانكرياس نفسه ويقضي على ذاته

وينتحر؟ وكل البحوث تدل على أن العامل الوحيد الذي يقي البانكرياس، هذه «القنبلة الموقوتة»، شرّ نفسه هو تماسك وصحة خلاياه التي بتوازنها وتنسيقها وارتباطها بعضها ببعض تضبط هذه المواد الفتّاكة وتحولها إلى أغراض مفيدة. وعندما يطرأ أي خلل على هذه الخلايا، تختل هذه المعادلة، وتنفجر هذه المواد، وتفتك بكل ما يتصل بها. وهكذا لبنان والإنسان اللبناني. ففي هذا البلد تعددت التفسيرات والاجتهادات عن أسباب الحرب، وكلها صحيحة ومنطقية.

فمما لا شك فيه أنه كان ثمة صراع على النفوذ آنذاك بين الجبارين الأميركي والسوفياتي. ومن الثابت أيضاً أن إسرائيل كانت تسعى، ولا تزال، إلى ترسيخ أقدامها في لبنان. كما أنه واضح أن الصراعات العربية حلّت في وطننا على الرحب والسعة. والتجاوزات الفلسطينية وفكرة الدولة البديلة، والصراعات اللبنانية سواء الطائفي منها أو الطبقي أو الاجتماعي أو السياسي، حقائق ساطعة لا مجال لإنكارها. غير أن وجود هذه العناصر والعوامل لا يفسر لنا مسألة دمار لبنان مثلما لا يفسر وجود الكيميائيات تآكل البانكرياس. فتآكل البانكرياس سببه المباشر تفكك الخلية وليس وجود الإفرازات الكيميائية. وهكذا لبنان، فهو لا ينفرد بوجود المؤامرات ومصادر التصدع الداخلي التي لا تخلو دولة واحدة في العالم منها. مأساتنا في لبنان هي إذاً تفكك إنساننا. وهذه هي بالتحديد قضية لبنان. إنها قضية الإنسان فيه.

ليس من المبالغة القول إن الجلسات اليومية التي كنا نقضيها في ذلك المكتب الصغير لتجمّع لبنان الواحد حيث كانت تدور مناقشات حادة عن لبنان والإنسان وكل ما يتعلق بالحرب القذرة،

كانت بالنسبة إليَّ من أهم الدروس وأنفعها. فقد تعلمت الكثير عن لبنان والإنسان اللبناني وعن الدستور. واستمعت إلى الكثير وقرأت الكثير عن العلمنة ومبادئها وطرق تطبيقها في مجتمعنا.

واتضح لي للمرة الأولى أين يقع لبنان في التصنيف العالمي. فالبعض يصنّفنا بأننا من العالم الثالث، وهذا ليس بعيداً عن الحقيقة. لكننا لسنا في صميم العالم الثالث، بل نحن على هامشه. فللبنان ميزتان مختلفتان عن بقية دول العالم الثالث.

الأولى، هي أننا نطمح إلى العمل وإلى الحكم بأساليب العالم المتحضر، ونطالب بالحرية والديموقراطية وكل ما هو قائم في العالم المتحضر من أساليب حكم دون أن نكون بمستوى هذا العالم ودون أن نبذل الجهد اللازم لممارسة الحرية بمسؤولية والاستفادة منها كمجتمع ديموقراطي.

والثانية، هي أننا بالرغم من الحرب القذرة نتمتع بحرية نسبية، وحرية تحرّك لا بأس بها.

وفي لبنان نواة متحركة ومتطورة اكتشفت الإنسان ووعت قيمته. وهذا يجعل بعض أفراد المجتمع اللبناني، على الأقل، بعيدين عن التخلّف. وهذه النواة يجب أن نستفيد من وجودها لكي نبدأ بالانتقال من الوضع المتخلّف إلى الوضع المتطور. فنحن في منتصف الطريق بين التخلّف والتطور، ونحتاج إلى دفعة صغيرة لنصل إلى ما نصبو إليه.

وأدركت أيضاً أن هذه النواة التي ذكرتها لا فاعلية لها لتبعثرها.

والمطلوب هو جمع شملها لكي تصبح قوة ضاغطة وفاعلة قادرة على التأثير في أوضاع الوطن، والعمل على تعميم مفهومنا لماهيّة الإنسان وحقيقته في لبنان، وفرض القيم الإنسانية وإرسائها على قواعد راسخة.

كذلك تعلمت الكثير عن العلمنة ومفهومها. وأنا أعتقد أن العلاقة بين الدولة والمجتمع تجسد علاقات إنسانية بين البشر أنفسهم لا علاقات دينية بين البشر وربهم. فالدولة والمجتمع العلمانيان هما حصيلة علاقات إنسانية واقعية، لا انعكاس لإرادة إلهية. فالبنية الاجتماعية العلمانية تفصل بين الدين والدولة، وبين الممارسة الدينية والممارسة السياسية، وتلغي تنظيم المجتمع على أساس الطوائف، وتلغي الطائفة بصفتها وسيطاً بين الفرد والدولة. وفي المجتمع العلماني تصبح كفاءة الإنسان وإنتاجيته وعمله المعيار الأوحد لقيمته ومكانته في المجتمع. وعندما نقتنع بذلك نكون قد بدأنا بفهم جوهر العلمنة.

والمضحك المبكي في لبنان أن أمراء الطوائف على مدى السنين نادوا بفذلكة التعايش وتباهوا بها في جوّ يشوبه الحذر والخوف وعدم الثقة الداخلية. وكان لهذا التعايش مدّ وجزر، وكان عرضة لمآسٍ عديدة، آخرها المأساة التي عشناها طوال عشرين عاماً.

ولا بد في هذا المجال من الحديث بفخر واعتزاز عن موقف أهل رأس بيروت إبان الحرب القذرة. ففيما كان القصف والدمار القاسم المشترك الذي يجمع كل بيروت وسائر المناطق اللبنانية تفرّدت هذه المنطقة من العاصمة بتماسك أهلها مسلمين ومسيحيين تماسكاً لم يتزعزع بالرغم من كل الضغوط والاستفزازات التي كان يطلقها، بلا حساب، أمراء الطائفية الذين كادوا ينجحون في تقسيم لبنان

إلى دويلات طائفية ومذهبية. كانت اللحمة بين أهل هذه المنطقة أمنع وأشدّ من أن تتفكك أمام هذه الأمواج البغيضة.

ولا أنسى أبداً الموقف المشرّف والنبيل للمسلمين في رأس بيروت يوم كان التزمّت الطائفي في أوجه، ويوم حاولت بعض القوى التقسيمية تخويف المسيحيين في هذه المنطقة وإكراههم على مغادرتها. فكنت أحاط يومياً بإخواني في رأس بيروت وكأني قيمة ثمينة لا بد من الحفاظ عليها، وقد عرضوا عليَّ مراراً حمايتي وحراسة منزلي ولم يسمحوا لي بالتجوال دون مرافقة. ولا مبالغة في القول أن هذا الموقف كان من أهم الأسباب التي جعلتني أبقى في رأس بيروت.

وفي سنة ١٩٨٢، إبان الاحتلال الإسرائيلي لبيروت، تجلّت رأس بيروت بأنبل معالمها. ففيما قوبل الإسرائيليون حين دخلوا إلى المناطق الأخرى بالتصفيق أو برشّ الزهور أبت هذه المنطقة البطلة أن تتقبلهم. فلم يمض يومان على وجودهم في رأس بيروت حتى قُتل بعض جنودهم وهم يحاولون شرب القهوة في أحد مقاهي شارع الحمراء. واكتشف الإسرائيليون أن رأس بيروت تختلف عن المناطق الأخرى. ولن أنسى ذلك اليوم الذي اغتيل فيه أحد الضباط الإسرائيليين، وكنت ماراً في شارع عبد العزيز قرب مستشفى الجامعة الأميركية، إذ سمعت أحد الجنود الإسرائيليين، وكان ملتصقاً بحائط بناية، يقول عبر مكبر للصوت: «لا تطلقوا النار على جيش الدفاع الإسرائيلي، نحن مغادرون غداً». وقفة عزّ لا أنساها أبداً!

الفصل الثامن

الخطف

كان يوم الجمعة في السادس من كانون الأول ١٩٨٥ يوماً مشرقاً جميلاً عندما قررت أن أعبر إلى المنطقة الشرقية لزيارة صديقي بيار عسيلي في بيت مري حيث اعتدنا أن نلعب التنس ونركب الخيل. وفي المساء تمتعنا بعشاء هادىء لذيذ في داره المطلّة على الجبال المغطاة بقليل من الثلوج في مثل هذا الوقت من السنة.

في صباح اليوم التالي، السبت، استيقظنا باكراً ونزلنا إلى بيروت الشرقية، ولعبنا التنس مدة ساعتين في ملعب صديقي الخاص. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر أتى السائق حسن جابر، سائقي المفضل، وهو من القلائل الذين أثق بهم في العبور بين جزءي المدينة المقسّمة، ليرجعني إلى بيروت الغربية. وللأسف كان حسن قد فقد ابنه الشاب قبل أسبوع برصاص قناص خلال اشتباك بين حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي. كان عبورنا هادئاً، وانتابني شعور

بالارتياح كما يحصل عادة بعد نجاح العبور.

وصلت إلى البيت الساعة الرابعة إلّا ثلثاً، وكانت الخادمة فايزة تنتظرني. طلبت منها أن تذهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع على أن تعود صباح الاثنين. في الساعة الرابعة والثلث توجهت إلى مستشفى الجامعة لتفقد مرضاي. وفي تلك اللحظة خطر ببالي أن أقوم بزيارة نائب رئيس مجلس النواب السيد منير أبو فاضل، وهو صديق عزيز وأحد مرضاي في الوقت نفسه. وبدلاً من أن أذهب إليه وحدي، فكّرت في أن يرافقني في الزيارة الدكتور يوسف سلامة (ابن أخت السيد أبو فاضل)، وكنت متأكداً أنني سأجده في نادي الخريجين الملاصق للمستشفى، إذ إنه اعتاد أن يلعب الورق هناك في مثل هذا الوقت. وبالفعل، كان الدكتور سلامة على وشك الانتهاء من اللعب ورأى أنها فكرة جيدة أن نتناول فنجاناً من القهوة في بيت خاله.

بدأ الظلام يخيّم، وبعد جدل قصير استقرّ رأينا على استخدام سيارتي الداتسون الصغيرة البيضاء. انطلقنا من شارع عبد العزيز نزولاً بمحاذاة مبنى الجفينور إلى شارع كليمنصو. حينها، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة والربع، سمعنا صوت سيارة تسرع خلفنا وهي تحاول تجاوزنا. فاتجهت بالسيارة إلى أقصى اليمين لكي أفسح لها في المجال لتمر بسهولة. تجاوزتنا السيارة ثم التفّت نحو اليمين وتوقفت قاطعة علينا الطريق. وبسرعة، خرج من السيارة الفرنسية القديمة رجلان بشهران مسدسين، يراوح عمر الواحد منهما بين ٢٥ و٣٠ سنة، وطلبا مني أن أترجّل.

كان سائق السيارة حليق الذقن، تكسو وجهه ملامح جدية

وصارمة. بادر بالقول: «اخرج من السيارة، هناك مشكلة أمنية تتعلق بسيارتك، وعليك أن تأتي معنا لإجراء تحقيق». أول ما تبادر إلى ذهني أن الرجلين من لصوص السيارات وأن غرضهما هو سرقة السيارة. أخبرتهما من أكون وإلى أن أنا ذاهب، وقلت لهما إنه لا حاجة لمثل هذه الجلبة، فإذا كانا يريدان السيارة فيمكنهما أخذها.

تلت كلماتي برهة من التردد، غير أن الرجل الآخر، الملتحي، استشاط غضباً وحاول دفعي إلى المقعد الخلفي للسيارة، ولكنني حاولت المقاومة. في تلك اللحظة ترجّل الدكتور سلامه من السيارة وأخذ يشرح لهما من نكون، لكن دون جدوى. فقد صوّبا مسدسيهما نحو رأسينا وهددا بتفجيرهما إن نحن قاومنا، ثم أدخلانا إلى المقعد الخلفي للسيارة تحت تهديد السلاح.

وهنا لاحظت وجود سيارة أخرى، مرسيدس بيضاء قديمة، كانت تسدّ طريقنا من الخلف وبداخلها أربعة رجال مسلحين برشاشات كلاشينكوف. ترجل منها اثنان وحلاّ مكان الرجلين اللذين خطفانا في السيارة الفرنسية القديمة. وعندما تحرك الموكب كنا في سيارة الداتسون مع الخاطفين محشورين بين السيارتين الأخريين.

طوال الطريق كان الرجل الملتحي الجالس بجانب زميله السائق يصوّب مسدسه نحونا ويأمرنا بإبقاء رأسينا وعيوننا مغلقة وإلّا هشّم دماغينا. فقلنا لهما إن ما يحصل لا بد أن يكون نتيجة خطأ ما، إذ إننا من سكان بيروت الغربية وليس هناك من سبب لاعتقالنا. والغريب أن أحداً لم يسألنا عن اسمينا أو عن الطائفة التي ينتمي إليها كلّ منّا.

مرّت عشر دقائق قبل أن نصل إلى المكان المقصود. وكان السائق قد أخبرنا أثناء الطريق أنه يأخذنا إلى مقر قيادة الحزب التقدمي الاشتراكي لاستجوابنا. وهذه كانت أول إشارة إلى أنّ خاطفينا لا ينتمون إلى الحزب التقدمي الاشتراكي. أخذوا من كلّ منا ساعته وحزامه وربطة عنقه ونقوده ورخصة قيادته كما أخذوا بطاقتي الطبيّة البلاستيكية.

وصلنا إلى بناية كبيرة فدخلنا عبر باب كاراج كبير ونزلنا إلى الطابق السفلي. كان الظلام دامساً فضلاً عن أننا كنّا نغطي أعيننا بأيدينا فلم نستطع رؤية أي شيء. ثم أمسكوا بأيدينا وجرّونا بضع خطوات إلى أسفل ثم إلى اليسار ثم إلى أسفل من جديد، إلى أن فتحوا باباً حديدياً ودفعوا بنا إلى غرفة صغيرة مظلمة تماماً لا يزيد طولها على ٢,٢٥م وعرضها ١,٢٥م، وأقفلوا الباب الحديدي وراءهم. ولقد شاهدنا فأراً صغيراً يسير بحذر على طرف الباب.

أطبق على الغرفة المظلمة صمت شامل. ولا أستطيع وصف مشاعرنا التي كانت مزيجاً من الغضب والغيظ والإحباط. لكن الخوف لم يكن قد دخل قلبينا حتى الساعة. شعرت بحاجة قوية لأن أبوّل، فتناقشت مع جو في ما يمكنني فعله، وقررت أن أطرق الباب الحديدي لعلّ أحداً يجيب. وقد تردد صدى الطرق في المدى المغلق، لكن دون جواب. طرقت بقوة أكبر عدة مرات فأتاني الجواب رصاصتين أصابتا الباب الحديدي دون أن تخرقاه. وسمعت أحدهم يصرخ: «إذا طرقت الباب ثانية سأنثر دماغك على الجدار». قلت: «أريد أن أبوّل، ولا أستطيع أن أضبط نفسي لفترة أطول». قال: «عليك أن تنتظر حتى نسمح لك بذلك»، فأجبته: «إذن، سأبوّل في الغرفة»، وشرحت له أن الأشخاص الذين في عمري،

على عكس الشباب، لا يستطيعون التحكم في بولهم كما يستطيع الأشخاص الأصغر سناً. فكان أن هددني بالموت إذا بوّلت على جدار الغرفة. لكنني بوّلت على الجدار بطوله كي لا يتجمع البول في بركة صغيرة ويتسرب إلى خارج الغرفة فيشاهدونه. وانتابني شعور عظيم بالراحة والانتصار، وفرحت لأنني استطعت خداعهم.

كان من المبكر الإحساس بما سيؤول إليه مصيرنا. والفكرة الأولى التي خطرت في بالنا هي أن حظنا كبير لأنهم أبقونا معاً. وعندما نستعيد ما حدث نجد أن هذا الأمر كان العامل الأهم في تعزيز قوتنا أثناء فترة احتجازنا.

كنا أنا وجو نتحدث باللغة الإنكليزية حتى لا يفهم خاطفونا ما نقوله. أول ما فكّرت به هو كيف يمكن تجاوز المحنة. أخبرت جو أن أول ما يقولونه لنا عند تعليمنا الغطس تحت الماء: عندما تواجه مشكلة قل بصوت مرتفع «لا تهلع»، وكرّر هذا القول لأن معظم الحوادث المميتة تحت الماء سببها الهلع. وهكذا بدأت أكرر هذا القول مع أخذ نفَس عميق بين المرة والأخرى.

شعرت بارتياح كبير، وبعد ساعة دخل علينا شاب مقنّع، نحيف وطويل، وسأل عن اسمينا ومكان إقامتنا وانتمائنا الديني. وهنا تجرأت أن أسأله، بنوع من الاقتضاب، إن كان بإمكاننا الحصول على قنينة فارغة نضع فيها البول. استجابوا لطلبنا وأحضروا لنا قنينة، الأمر الذي اعتبرته إشارة إيجابية أولى في الاتصال بيننا وبين خاطفينا. لقد بدأت «ستوكهولم سيندروم» بيننا بأسرع مما كان متوقعاً.

بعد فترة قصيرة أتى رجل آخر وسأل أيّنا يكون الطبيب. طلب مني أن أتبعه إلى خارج الغرفة الصغيرة حيث قال لي بلهجة مهذّبة، ولكن جادة، إن ثمة مشكلة تتعلق بنا، وإنهم يحققون فيها. هنا بدأت أخاف للمرة الأولى، إذ ظننت أنهم سيفصلونني عن صديقي لأن ذلك سيكون بمثابة كارثة لكلينا. ولكن سرعان ما تبدّد خوفي عندما أعادني الرجل إلى الغرفة لأنضم إلى جو.

ولقد أدى بنا الإنهاك والإحباط والشعور بالعجز إلى الاستغراق في نوم عميق. ولا أذكر أنني نمت سابقاً بشكل أفضل خلال ظروفي العادية. ولم نستيقظ إلّا بسبب شخيرنا المتزامن وأيضاً بسبب الأناشيد الدينية التي كان يرددها خاطفونا بشكل مستمر في مكان قريب من سجننا.

يوم الأحد ٨ كانون الأول استيقظنا من نومنا العميق المريح إثر طرقة على باب زنزانتنا. بوّلنا في قنينة البلاستيك، ولم تكن هذه عملية سهلة، إذ إن أي خطأ في توجيه تدفق البول نحو فوهة القنينة سيؤدي إلى تناثر البول في كل الاتجاهات وإلى تلويث الأيدي والأشياء القريبة. وبعد تجارب قليلة أصبحنا خبيرين في توجيه تدفق البول إلى داخل القنينة دون تناثر أي نقطة خارجها. في ذلك الصباح سمعنا صوت القبقاب يقترب من زنزانتنا، ثم سمعنا الباب يقرع. وأثناء فتحه قال القادم «أغضموا عيونكم». وبعد أن أطعنا أمره طلب منا أن نتبعه. كان الرجل يحمل بيده شيئاً يشبه مسطرة معدنية فطلب مني أن أمسك بطرفها وأتبعه، ووضع جو يده على كتفي وتبعني. تابع الرجل إرشادنا ونحن نهبط. نزلنا أربع درجات ثم مشينا خطوة أو اثنتين إلى اليسار، ثم نزلنا خمس درجات.

كان كل همي عدم التعثر والوقوع، خصوصاً أنني كنت أحمل بيدي اليمنى قنينة البول التي أوشكت على الامتلاء. في تلك اللحظة تنهّد جو لمرة واحدة ولم أفهم السبب. أخيراً فتح سجاننا باباً وأدخلنا غرفة، ثم طلب منا أن نفتح أعيننا فيما كان هو يقف خلفنا. وكان الرجل يؤكد باستمرار أننا يجب ألا ننظر إلى الوراء كي لا نراه.

كانت غرفة واسعة (٤,٥م x ٣,٥م) بسريرين وفرشتين وسختين ولكن مريحتين، إضافة إلى وسادتين من الإسفنج وحرامين من الصوف كانا في الأساس حراماً واحداً جرى قصّه نصفين. فتنفسنا أنا وجو الصعداء.

خاطبنا الرجل بصوت لا يخلو من الدفء: «فكرت في أنكما سترتاحان هنا أكثر». أخبرناه بأن المكان ممتاز وهو مثل فندق السان جورج بالمقارنة مع المكان الذي قضينا فيه الليلة الماضية. وقد سمح لنا كذلك بالذهاب إلى الحمام. وكان الحمام واسعاً يتوافر فيه الماء البارد والساخن وفيه مرحاض دون مقعد. أمضينا هناك ما بين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة فقضينا حاجتنا وغسلنا أيدينا ووجهينا ثم أضاف الرجل: «أنا متأكد من أنكما جائعان». فقلنا له إننا نكاد نموت جوعاً، هذا لكي لا نقطع سلسلة الحديث لأننا شعرنا بأنه يرغب في التواصل معنا، وكنّا حريصين على عدم إضاعة الفرصة.

قلت للرجل: «لم نحصل على طعام منذ ظهر يوم السبت». كلامي كان صحيحاً، ولكن الصحيح أيضاً أنني لم أشعر بالجوع ولم يكن لديَّ رغبة في الأكل. غير أن المدهش كان عدم إحساسي بالعطش. كنت أستطيع تفسير فقدان شهيتي للطعام لكنني لم أعرف أن

العطش أيضاً يمكن أن يتأثر بتلك الظروف. قال الرجل وهو يغادر الغرفة ويقفل الباب وراءه: «سأذهب لأحضر لكما طعام الإفطار».

بعد نصف ساعة سمعنا صوت الحذاء الخشبي، يقترب، ثم سمعنا قرعاً على الباب وخشخشة المفاتيح. قال الرجل: «أغمضا عيونكما ولا تنظرا إليّ». كنا واقفين في وسط الغرفة فمددنا أيدينا إلى الخلف نحوه، ثم اقترب مني وقال هامساً: «كل هذا السندويش. لقد حضّرته لك أمي ووضعت فيه أوراق النعنع مع اللبنة». بالنسبة إليّ كان كلامه نقطة تحوّل في علاقتنا. وعندما خرج وأقفل الباب وراءه رقصنا من الفرح: لا بد أن تكون أمه من مرضاي.

ونظراً لتوافر الوقت الكافي بدأنا أنا وجو بتحليل الوضع. لقد اتضح لنا أن شيئاً ما قد تغيّر منذ البارحة، وأنه قد حصلت بعض الضغوط لتحسين وضعنا، وأن تعليمات أعطيت لسجّانينا كي يعاملونا على أساس أننا شخصيتان مهمّتان. أما الفكرة الثانية التي خطرت في بالنا فهي أن تصفيتنا لم تعد واردة، واعتبرنا المرحلة التالية مرحلة انتظار طويل.

بدأنا نتخيل سيناريوات أصدقائنا في الخارج بمن فيهم خال جو، منير أبو فاضل، وصِلاته العديدة، فضلاً عن صِلاتي والطاقم الطبي في المستشفى. كنا على ثقة بأن أصدقاءنا لن يوفروا جهداً للعثور علينا وتحريرنا. والتغير الذي طرأ على الوضع بين يومي السبت والأحد كان دليلاً هاماً على الجهود الإيجابية وعلى زيادة الضغط على خاطفينا.

بعدما اتفقنا على أن المرحلة مرحلة انتظار طويل بدأنا بتنظيم عالمنا

الصغير. كانت الغرفة واسعة وبدون نوافذ، فيها مروحة للتهوئة تعمل لمدة نصف ساعة كل مساء لتغيير هواء الغرفة. وكان لدينا قنينتان، واحدة لماء الشرب والأخرى للبول. وكنا نراقب باهتمام النقص في إحدى القنينتين الذي يساوي الامتلاء في الأخرى، وعند المساء كانت قنينة ماء الشرب تفرغ وتصبح الأخرى مملوءة بالماء الأصفر. قليلة هي المستشفيات التي تستطيع مجاراة دقتنا في تناول السائل وتصريفه.

كان للغرفة بابان، واحد يستخدمه السجّان والآخر مقفل على الدوام. ومن خلال ثقب المفتاح رأينا أن الباب المقفل يؤدي إلى غرفة أخرى فيها أثاث ملوّن وسجادة وكومة من الصحف والمجلات، لكن لا أثر فيها للحياة.

جدران غرفتنا كانت مطلية باللون الأبيض، تلطخ أحدها آثار دماء ربما كانت ناجمة عن مسح جرح أو ما شابه لأن لطخات الدم خفيفة على الجدار. وعلى جدار آخر عدة ثقوب سببها طلقات رصاص، وهناك رصاصة لا تزال عالقة فيه. أمّا الجدار الذي يقع خلف سريري فيحمل كتابات بالعربية منها «أمي الحنون» و«ردتي الجميلة».

حوالي الظهر، وأقول «حوالي» لأننا لم نعد قادرين على تحديد الوقت بدقة، أتى الرجل نفسه، وقد عرفناه من صوته، وقال: «أحضرت لكل منكما أربع قطع من الصفيحة البعلبكية وكوباً من اللبن». فشكرناه على الطعام، وسألناه إن كان بالإمكان إحضار كتب أو مجلات من أي نوع، وإذا كان ذلك متعذراً فبعض الكتب الدينية للتمعّن في الدين.

أجاب الرجل وفي صوته «مسحة فكاهة»: «نحن لسنا مثلكم، نحن فقراء وأميّون. أما بالنسبة إلى الكتب الدينية فنحن شيوعيون ملحدون». فقاطعته قائلاً: «لا سمح الله. أسمعكم تصلّون طوال الوقت، ولا بد أنكم مؤمنون». إنها المرة الأولى التي شعرت فيها بأني أجرؤ على مخالفته، إذ كان من الواضح أنه يمزح وأن «ستوكهولم سيندروم» بدأ يثمر. ثم قال الرجل: «على كل حال، سنحاول أن نحضر لكما شيئاً للقراءة، لكنني أرى أنكما لم تتناولا الطعام، ألا تحبان طعامنا؟»، فأجبته: «إنها أطيب صفيحة تذوقناها حتى الآن، لكنني أكون كاذباً إن أخبرتك أننا سعيدان هنا ومرتاحان. وبما أنني طبيب يمكنني القول أن تأثير حالتنا النفسية والمعنوية على معدتينا ينتج منه تشنجات كما يسبّب فقداناً للشهية». فصارحنا الرجل قائلاً: «ينبغي أن تسترخيا وأن تهدأ أعصابكما. إنكما تعرفان الأوضاع الراهنة في لبنان. أحضرناكما إلى هنا لنبادلكما بمخطوفين لدى الطرف الآخر، وسريعاً ستخرجان من هنا سواء أتمّت عملية التبادل أم لم تتمّ». قال ذلك وهو يغادر الغرفة ويقفل الباب وراءه.

في فترة ما بعد الظهر سمعنا طرقاً على الباب مصحوباً بالكلمات المعهودة: «أغمضا عيونكما». كنا نشعر بسعادة لدى سماعنا «أغمضا عيونكما». كان واضحاً أنهم لا يريدوننا أن نتعرف إليهم، الأمر الذي يعني أنهم سيطلقون سراحنا يوماً ما. وكنا نصاب بالذعر عندما نفكر بأنهم قد يأتون إلينا دون أن يطلبوا منا أن نغمض عيوننا، إذ إن التعرّف إلى الخاطفين كان يستتبع بالنسبة إلينا إما التصفية الجسدية أو السجن لفترة طويلة تتجاوز الشهور أو السنوات.

دخل الغرفة رجلان أو ثلاثة وسأل أحدهم مَن منّا يكون الطبيب،

فأشار جو إليَّ. جلس الرجل على سريري وقال إن لديه مشكلة في عينه، ثم أخذ في وصف مشكلته. لكن جو اقترح عليَّ أن أتحسس عينه وعيناي مغمضتان. أمسك الرجل بيدي ووضعها على عينه، فأحسست أنّ فيها كتلة صغيرة قدّرت أنها شحاذ. أخبرته بأني لست اختصاصياً في أمراض العين، لكنّ الأمر بسيط ولا يحتاج إلى علاج معقّد إذ يكفي أن يضع عليها نوعاً من المراهم كتبت اسمه على ورقة أعطاني إياها.

بعد هذا الحوار بين الطبيب والمريض قرّرت أن أصعّد مطالبي وانتظرت ردة الفعل. طلبت سجائر، لكنهم رفضوا الطلب. عندها كررت مطالبتنا بكتب أو مجلات نقرأها لتمضية الوقت.

ورغم التطورات الإيجابية التي حصلت معنا طوال يوم الأحد، فلقد عشت مساء ذلك اليوم لحظات هي الأشد رعباً في حياتي كلها، إذ حصل الكثير من إطلاق النار وراء جدار غرفتنا، وسمعنا صوت أنين نتيجة الألم والعذاب. درجة الصوت كانت عالية، وتقديري أن الضحية فتى لم يتجاوز الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره. كانوا يضربونه بقضيب، أو ربما بالمسطرة المعدنية التي جعلونا نمسك بها في اليوم الأول من احتجازنا لنستدلّ بها على طريقنا إلى الزنزانة. استمر الضرب نحو ربع ساعة، وسمعت الفتى يقول: «ما بعيدها، ما بعيدها». استنتجت من لهجة الفتى أنه مسلم وأنه ربما اختلس شيئاً ما أو قام بسرقة صغيرة. لكن لا شيء كان يدلّ على وجود مشكلة سياسية أو طائفية. هذه الحادثة جعلتني أفكر أن المكان هو سجن لأغراض متعددة، فهو يضمّ أشخاصاً خُطفوا من أجل المبادلة، ويضمّ آخرين محتجزين لأسباب أخرى.

فجأة سمعنا خمس طلقات قوية تأتي من المكان ذاته. ثم حلّ صمت مخيف كان يخرقه صوت القباقيب. تصبّب وجهي بالعرق البارد وسيطر على معدتي اهتياج شديد. وظننت أنهم يعدمون السجناء، وأن الطلقات كانت هي الرصاصات الموجهة إلى الدماغ، ولذلك لم نسمع أنيناً أو أي صوت آخر. كنت أصغي منتظراً سماع أصوات تحريك الجثث، إلّا أن الصمت وحده كان مخيماً.

تبادلنا أنا وجو النظرات دون أن نتفوه بكلمة، ثم أخذ صوت القبقاب يسمع ببطء من غرفتنا، وصار يعلو أكثر فأكثر. في تلك اللحظة أدركت أن دورنا قد حان وأننا سوف نعدم. كانت الأفكار ترد إلى خاطري بسرعة. هكذا إذن، قلت لنفسي، آمل أن تكون رصاصة في الدماغ تنهي الأمر دون ألم. لقد عشت حياة جيدة وأرجو أن لا تعاني عائلتي كثيراً بعد موتي. صوت القبقاب اقترب من باب غرفتنا ثم توقف، ثم تراجع مبتعداً. تنفسنا الصعداء وتبادلنا النظرات. قلت لجو: «إني فخور بكلينا، إذ لم يرعبنا الموت كما كنت أتصور»، ثم أخبرته عن الأفكار التي راودتني حول الموت دون ألم، وحول الحياة الجيدة التي عشناها. فقال لي جو إن أفكاره كانت مشابهة.

في تلك الليلة نمنا نوماً عميقاً دون كوابيس. غير أني حلمت أنني كنت في لندن فسألني صديق عمّا أفعل، فأخبرته بضرورة عودتي إلى بيروت لأنه قد حكم عليَّ بالموت هناك وعليَّ الالتزام بالموعد.

في ساعة مبكرة من صباح يوم الاثنين في ٩ كانون الأول استفقنا أنا وجو من النوم وقمنا ببعض التمارين الرياضية وتدارسنا الخطوات الضرورية من أجل الحفاظ على حدّ أدنى من نظافتنا ونظافة ثيابنا،

إذ مضى علينا يومان دون أن نبدّل ثيابنا، كما أننا، إذا ما طال احتجازنا، فسنصبح عرضة للأمراض الجلدية. سمعنا صوت القبقاب فدخل علينا الحارس. طلبنا منه بعض السجائر والمجلات وقلت بدوري: «وشي عروس لبنة». قال: «تكرموا، وسأطلب من الحراس مجدداً أن يحسنوا معاملتكما». وفعلاً دخل علينا شاب وأعطى كلاً منا منشفة، ثم اقتادنا إلى الحمام، فاغتسلنا واستعملنا المرحاض، وأعدنا وضع ثيابنا الوسخة على جسدينا النظيفين. وكانت معاملة الحارس لنا لافتة. ففي طريقنا إلى الحمام، عند وصولنا إلى أول الدرج، قال: «يا شباب، فيكم تفتحوا عينيكم بس خلّوا نظركم بالأرض». فامتثلنا، وشكرناه وعدنا بالطريقة نفسها إلى الغرفة. ثم غاب وعاد حاملاً معه ثماني سجائر، وبعض المجلات القديمة، وأربع عرائس لبنة مصنوعة من الخبز الطازج فيها كمية كبيرة من اللبنة الدسمة. أكلناها بلذة لم نعرفها منذ اختطافنا وأشعل كل منا سيجارة. سألنا عن قياس أحذيتنا فأخبرته أن حذائي نمرته ٤٠ وحذاء جو ٤٢. اقترب مني وحاول أن يخلع الجزمة من رجلي. لم أكن قد خلعت جزمتي منذ اختطافنا. كان ذلك يعطيني إحساساً بالراحة إذ كنت أعتقد أنني لن أقيم هنا طويلاً ما دمت منتعلاً جزمتي، مع أننا تداعبنا مرة أنا وجو حول فكرة أن نموت ونحن ننتعل حذاءينا، إذ كان جو ينتعل جزمة «لوكيزي» الفاخرة. نجح الرجل في نزع جزمة واحدة من إحدى قدميّ لكنه أعادها لي بعد دقائق معدودة. حاولنا أن نحلّل دوافع الرجل، وأفضل ما توصلنا إليه أنه قد استحسن الجزمة ولكن لسوء حظه لم يكن قياسها مناسباً.

بعد ساعة جاء سجّاننا الودود وأخذنا إلى الحمام حيث أفرغنا قنينة البول وملأنا الأخرى بمياء الشرب. ولدى عودتنا إلى الغرفة سمعنا

صوتاً آخر غير مألوف لدينا، خاطب سجّاننا بلهجة آمرة وطلب منه أن يخرج من الغرفة لأنه يريد أن يتحدث معنا، ثم طلب منا أن نجلس على طرف السرير ووجهانا مقابل الحائط، وأن لا ننظر إلى الخلف أبداً، وجلس هو على السرير الآخر وبدأ حديثه الطويل.

بدا من صوته رجلاً ناضجاً في أوائل الثلاثينيات من عمره، ذا تفكير واضح ومنطقي. كان هادئاً ومهيباً، ومقنعاً تماماً في عرضه. بدأ حديثه قائلاً: «أبدأ معتذراً عن سوء الوضع الذي أنتما فيه»، ثم أضاف: «حاولت أن أجد مكاناً أفضل لكن الأمر لم يكن سهلاً. أردت أن أضعكما في بيتي مع عائلتي، غير أنه لسوء الحظ لا يتسع لكما. سأثابر على التفتيش عن مكان أفضل. ولقد أعطيت تعليماتي إلى الأشخاص الموجودين هنا كي يعتنوا بكما بقدر ما تسمح به الظروف الحالية».

قاطعنا كلامه قائلين إننا لا نشعر بالانزعاج في هذه الغرفة وإنه لا ينقصنا الكثير من الضروريات، وأن الطعام يفيض عن حاجتنا فضلاً عن أنه معدّ بشكل جيد. قال الخاطف: «أريد أن أخبركما أنني المسؤول عن خطفكما. لم أقم بعملية الخطف شخصياً، لكنني فوّضت بعض الأشخاص ليقوموا بالمهمة من أجلي، وطلبت من أصدقائي المسؤولين عن هذا المكان أن يضعوكما فيه. كلاكما يتمتع بمكانة محترمة. أحدكما طبيب مشهور والآخر ابن أخت نائب رئيس مجلس النواب. إنني آمل، من خلال حجزكما، أن أتمكن من ممارسة ضغط ما لإطلاق سراح أخي الذي خطفته «القوات اللبنانية» منذ ثلاث سنوات. لا أدري ما يكون شعوركما لو خُطف لكما أخ، بيد أنني وعائلتي نعاني وضعاً بائساً منذ اختطاف أخي، ولم نعش لحظة فرح واحدة منذ ذلك التاريخ. لقد جرّبنا وسائل عديدة

وفشلنا، وآمل أن يجدي استخدامكما كوسيلة ضغط لتحرير أخي».

هنا قاطعته وسألته إذا كان متأكداً من أن أخاه ما زال على قيد الحياة، إذ إن فرص بقائه حياً ضمن المخطوفين المحليين كانت ضئيلة بعد هذه الفترة الطويلة من الزمن. فأجابني قائلاً: «أعرف أنه ما زال حياً». لم أشعر أنه من الحكمة الإلحاح على هذه المسألة في مثل هذا الوقت، لكنني أردت إظهار اهتمامنا الحقيقي وصدقيتنا.

ثم بدأ صديقي جو يتكلم. كان هادئاً ومتماسكاً وفصيحاً. قال: «دعني أخبرك أولاً أننا نتفهم ردة فعلك على خطف أخيك. وربما يمكنني القول إن ردة فعلك هي أخف بكثير من ردة الفعل التي كنت سأقوم بها لو خُطف أحد أفراد عائلتي. كنت تصرفت بعنف أشد، وبشكل هستيري، وأطلقت النار على أي شخص وقع تحت ناظري، رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً. إن الخطف هو أكثر التجارب الإنسانية إيلاماً، ورغم أنني لا أستطيع مجاراتك بالشعور تجاه أخيك، إلّا أنني أؤكد لك تفهمي الكامل لردة فعلك». وهنا انفعلت أنا أيضاً بالموقف الراهن وقاطعت صديقي قائلاً: «أقول لك إنني أشارك صديقي آراءه هذه حول الخطف، وأريد أن أؤكد لك أن أحد واجباتي الأساسية في السنين العشر الماضية من الحرب كانت، عدا واجبي كطبيب، انشغالي الكامل والتزامي بتحرير الأشخاص المخطوفين. وأقول لك منذ البداية إننا، أنا وصديقي، لا نشكّل عملة قابلة للتبادل في الخطف. ربما أنت لا تعرفنا ولا تعرف خلفيتنا الوطنية والسياسية. فنحن مسيحيان نعيش في ما يسمى بيروت الغربية المسلمة، ونحن نصرّ على العيش هنا، ولن نسمح لأي حاجز طائفي بأن يجبرنا على الانتقال من منطقة إلى أخرى.

ربما أنت لا تتذكر أنني كنت أول من شطب انتماءه الديني عن بطاقة هويته، ضمن حركة «شطب الدين عن الهوية» التي أطلقناها في بداية الحرب وانضم إليها فيما بعد مجموعة من اللبنانيين. كما أنك لا تعرف أننا صمّمنا على العيش والعمل هنا لإنقاذ شعبنا، رغم العروض المغرية التي تقدم بها ما يُسمى بالطرف المسيحي. واليوم أشعر بالحزن لأنه كان من المفترض أن أكون في الثامنة والنصف صباحاً في قاعة الدرس مع طلابي في الجامعة أعلّمهم درساً عن أمراض الكبد. هؤلاء الطلاب شباب مدهشون، نصفهم من أبناء دينك، ومعظمهم من الفقراء الذين تكدح عائلاتهم ليل نهار لتأمين نفقات تعليمهم الباهظة في كلية الطب. اليوم يحضر هؤلاء إلى المستشفى ليكتشفوا أن أستاذهم مفقود، وأن صفّهم قد ضاع».

هنا قاطعني الرجل بكلمات تعبّر عن حزنه وأسفه. لكنني كنت مندمجاً في حالة الانفعال، فتابعت كلامي دون توقف قائلاً: «دعني أخبرك أننا، أنا وصديقي جو، نعرف ذوي الشأن في لبنان، إذ إن تجربتي في حقل الطب مدة ثلاثين سنة قد جعلتني أتعرّف تقريباً إلى كل صانعي القرار في هذا البلد، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. لقد خدمتهم بأمانة، وهم مدينون لي بالكثير، وأعتقد أنهم في هذه اللحظة يفعلون ما بوسعهم من أجل إطلاق سراحنا». هنا قاطعني جو مخاطباً خاطفنا: «منذ الآن، مشكلتك أصبحت مشكلتنا. لكن إذا كنت تعتقد بأننا نستطيع المساعدة ونحن سجينان هنا دون إجراء اتصالات فأنت مخطىء. صحيح أن خالي رجل ذو نفوذ، ولقد ساعد في إطلاق العديد من المخطوفين، إلّا أنه في هذه اللحظة لا شاغل له سوى تحريرنا، ولن يكون لديه متسع من الوقت لمناقشة أية مسألة قبل تحريرنا. وإذا

كنت حقاً تريد أن يساعدك فهو لن يتمكن من ذلك قبل إطلاق سراحنا. إننا نرغب في الذهاب إلى بيتك والبقاء عندك ضيوفاً لمدة سنة أو اثنتين أو عشر سنين إلى أن تحلّ المشكلة، أو إذا رغبت نستضيفك نحن في منزلنا طيلة الفترة التي يستغرقها الحل، ونؤمن لك الحماية ذاتها».

هنا تدخّلت قائلاً: «كل هذا حديث جميل وعاطفي اندمجنا فيه كلنا. لكن المهم هو: أتصدّق كلامنا أم لا؟ إذا كنت لا تصدق كلامنا فانس كل شيء عن الموضوع وافعل ما تراه مناسباً. أما إذا صدقت كلامنا فعندها نستطيع العمل معاً. لا أريد أن أعدك بأننا نستطيع تحرير أخيك، رغم أنه من مصلحتنا أن نعدك بذلك، لأننا لا نريد أن نكذب عليك. فبلادنا عانت كثيراً خلال السنوات العشر الماضية من الخداع والكذب والوعود والكلام الفارغ، ولقد سئمنا نحن هذا كلّه، إلّا أن ما أستطيع أن أعدك به هو أننا، أنا وجو، سنقوم بكل ما نستطيع لمساعدتك في إطلاق سراح أخيك. هذا هو وعدنا، أما النتائج فلا أستطيع التكهن بها. مع الوقت ستتوضّح الأمور، لكن منذ البداية أقول إن فرص النجاح ضئيلة. كنت أتمنى لو أستطيع أن أكون أكثر تفاؤلاً إزاء مصير أخيك، وهذا لصالحي، لكنني لا أستطيع الكذب وأفضّل أن نبدأ معك على هذا الأساس». شعرت أن كلامنا قد راقه، وأشك في أن يكون قد واجه من قبل مثل هذا النوع من التفكير.

أحسست نتيجة هذا الحديث بيننا أن صوته قد تغيّر فأضحى رقيقاً تتخلله نفحة اعتذارية. قال لنا: «قدمتم لي عدة خيارات وأشكر لكم صدقكم. سأعود إليكم خلال اليومين القادمين وأعطيكم جوابي الأخير». وكان على وشك الذهاب عندما طلبت منه أن

نتصافح لمباركة الاتفاق. لقد رغبت في التأكيد من خلال برهان حسّي على الإحساس الذي راودني بأنه كان صادقاً فمددت يدي اليمنى إلى الخلف حيث أمسكت بها يد ثابتة خشنة الملمس عبر مصافحة طويلة وقوية، وكذلك فعل جو. فشعرت بارتياح عظيم وتأكدت أن هذا الرجل قد أصبح إلى جانبنا الآن. لقد بات «التواصل» بيننا في ذروته.

مرّ يوم طويل، حاولنا فيه أن نحلّل ونراجع كل خطوة جرت منذ اعتقالنا. اعتقدنا بأن الرجل لا بد أن يكون قائداً، وإلّا لما تكلم بلهجة واثقة. لا بل أكثر من ذلك، فإنه عندما دخل الغرفة خاطب سجّاننا بلهجة توحي بالقيادة والسلطة وأمره بالخروج قائلاً: «أغلق الباب واتركنا وحدنا».

وطبقاً لروايته رأينا أن هناك احتمالين: فإما أن تكون قصته حقيقية وأن يكون خطفنا للمبادلة، وعندما أدرك أن صيده كان ثميناً فكّر في الاستفادة منه، وإما أن يكون كلامه مجرد سيناريو ابتدعه لإيجاد مخرج لائق من وضع يزداد حرجاً وصعوبة بالنسبة إلى الخاطفين بسبب ازدياد الضغط عليهم من مصادر وطنية وأجنبية بهدف تحريرنا. وكنا نتخيّل ما يحدث في الخارج.

ما إن نشر خبر اختطافنا في الصحف حتى تداعت معظم الأحزاب والهيئات والفعاليات في بيروت الغربية إلى عقد الاجتماعات وإذاعة بيانات الاستنكار. وقام أطباء الجامعة الأميركية، وقد ارتدوا اللباس الأبيض، بمسيرة انطلقت يوم ٩ كانون الأول ١٩٨٥ من مستشفى الجامعة إلى القصر الحكومي في الصنائع احتجاجاً على خطف زميلهم الدكتور شمّاعه والسيد سلامة. وانتدب الأطباء وفداً منهم

قابل الرئيس رشيد كرامي وبحث معه في الموضوع. وأصدرت إدارة الجامعة على الأثر البيان الآتي: «بناء على قرار الجمعية العمومية لكلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت وجميع أعضاء الجسم الطبي في مستشفى الجامعة الأميركية، توجّه الأساتذة والأطباء المتمرنون والمقيمون في الأولى بعد ظهر اليوم في مسيرة سلمية من مستشفى الجامعة إلى القصر الحكومي وذلك احتجاجاً على خطف الدكتور منير شمّاعه، الأستاذ في كلية الطب في الجامعة، وأحد أطباء مستشفى الجامعة الأميركية. وقابل وفد من الأطباء يمثل أعضاء الجمعية العمومية رئيس الحكومة، وهو مؤلف من العميد الدكتور رجا خوري والدكتور سمير نجار والدكتور فيصل نجار والدكتور نجيب أبو حيدر والدكتور مروان عويضة والدكتور رفيق ملحم، وضم الوفد مدير الإعلام في الجامعة السيد رضوان مولوي ومدير مستشفى الجامعة بالوكالة السيد أحمد نصر الله. وأبدى رئيس الحكومة السيد رشيد كرامي بدوره اهتماماً بالغاً بخطف الدكتور منير شمّاعه ورفيقه السيد سلامة، وأعرب عن استيائه واستنكاره لهذا الحادث. وأشار إلى أن كل الأجهزة الأمنية الرسمية، وكذلك جميع الفعاليات الحزبية تواصل بذل كل طاقاتها لضمان سلامة المخطوفين.

«وأبدى رئيس الحكومة كذلك تفهمه للخطوات التي اتخذها أعضاء الجسم الطبي (إعلان الإضراب)، وأعرب عن تأييده لهذا الموقف مشيراً إلى أهمية صمود الأطباء وجميع أعضاء أسرة الجامعة وضرورة التريث في أية مواقف تصعيدية في الوقت الحاضر وعلى مدى الأربع والعشرين الساعة المقبلة لتفويت الفرصة على الذين يعملون في الخفاء لضرب المسيرة الأمنية ولإحباط كل محاولات التآمر على سلامة هذا البلد وأمنه».

إلى جانب تحرك أطباء الجامعة الأميركية تابع نائب رئيس مجلس النواب السيد منير أبو فاضل اتصالاته مع القيادات السياسية والأمنية لإطلاق ابن شقيقته يوسف سلامة ولإطلاقي. وكان قد بعث برسالة إلى نائب الرئيس السوري السيد عبد الحليم خدام، واتصل بوزير الأشغال العامة السيد وليد جنبلاط الذي وعده بوضع كل ثقله لإنهاء القضية ومن ثمّ اتخذ قراراً يقضي بتفتيش كل سيارة تخرج من بيروت وتمرّ على طريق الجبل للبحث عن المخطوفين. واتصل السيد أبو فاضل أيضاً بوزير العدل السيد نبيه بري وبمفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد وبالمفتي الجعفري الممتاز الشيخ عبد الأمير قبلان وبالعلّامة السيد محمد حسين فضل الله، وطلب من الجميع المساعدة لمعرفة مصيرنا وإطلاق سراحنا.

وتناقلت أخبار الخطف الصحف والإذاعات الأجنبية. وكانت زوجتي في ذلك الوقت تسكن لندن مع ابنتي رملى، وخوفاً من أن تسمع الخبر عبر الإذاعات قام الصديق هاني سلام بزيارتها وأخبرها بالحادثة يوم الاثنين في ٩ كانون الأول، أي بعد يومين من خطفنا، وأكّد لها أنه سيطلَق سراحنا في أقرب وقت.

وقد نمنا تلك الليلة نوماً عميقاً بعد أن شعرنا أن شيئاً ما يتبدل. فانقلب الجفاء ابتسامة وأصبح السلام «يا صباح الفل» بدلاً من «سكّر عينيك». وتأكدنا أن مشروع التصفية قد انتهى وأن توقيت الإفراج عنا أصبح هو المسألة.

أفقنا يوم الثلاثاء على صوت القباقيب وعلى صرير المفتاح في الباب، وسمعنا صوتاً مهذباً يخاطب الحراس: «خلّيكم برّا، إنت خليك هون، سكّروا الباب». ثم خاطبنا قائلاً: «مرحبا يا شباب، اجلسوا

كما جلستم البارحة» (على السرير). فجلسنا وفتحنا أعيننا ونظرنا باتجاه الحائط. قال: «عندي لكم أخبار سارة. لكن قبل أن أوافيكم بالأخبار السارة أريد أن أسأل: من أين تعرفون العلّامة محمد حسين فضل الله؟» فقال جو: «أعتقد أن الدكتور شمّاعه هو أحد أطباء العلّامة. أخبره يا منير». فقلت: «أنا لست طبيب العلّامة، لكن طبيبه هو أحد أصدقائي الحميمين. وأنا متأكد من أن هذا الصديق الطبيب هو على اتصال مستمر مع العلّامة من أجل اكتشاف مكان احتجازنا والمساعدة على إطلاق سراحنا». وقال الصوت المهذب بصدق وتواضع إن العلّامة فضل الله يطلب بإصرار إخلاء سبيلنا بلا قيد أو شرط كما يطلب أن نذهب فوراً إلى بيته في بئر العبد حيث ينتظرنا أهلنا وأصدقاؤنا، وأضاف قائلاً: «وطلب السيد فضل الله لا يُردّ». وطلب إلينا أن نخبر العلّامة إذا ما سنحت الفرصة أن محتجزنا يتقدم منه بالاعتذار. شكر جو خاطفنا على هذه الأخبار السارة، أما أنا فكنت منقبضاً ويدي ممسكة بيد جو لأخبره شيئاً وهو أنني شاهدت على الحائط خيال مسدس مصوب إلى رأسي. وتابع زائرنا كلامه فقال إن الحراس سيصطحبوننا الآن إلى الحمام، وسيزوّدوننا بمشط ومرآة، ومن ثم سيأخذوننا بسيارتهم إلى سيارة الرانج روفر الخاصة بالسيد فضل الله. اقتادنا الحراس إلى الحمام وأعيننا مغمضة، وكنت طوال الطريق وعلى الدرج أشدّ على يد جو، وما إن دخلنا الحمام وأغلقنا الباب وراءنا حتى أطلعته على مخاوفي. قلت له إنني غير مرتاح لما يجري وإنه فاته أن يلاحظ المسدس الذي كان مصوباً إلى رأسي طوال الوقت الذي كان يتحدث فيه زائرنا. فسألني عن كيفة مشاهدتي للمسدس، فقلت إن خيال الحارس وخيال فوهة المسدس المصوّبة نحو نافوخ رأسي انعكسا على الحائط أمامنا بوضوح. فأكد لي جو أن ما رأيته ما هو إلّا خداع بصري لتفاعل النور وخيالات الظل، وأنه متأكد من أن

الحراس سيقومون بتنفيذ تعليمات زائرنا بحذافيرها. وبدا جو أكثر إقناعاً عندما قال لي إنه لم يقرأ في الروايات البوليسية عن رهائن طلب منها أن تغتسل وتعتني بهندامها قبل دقائق معدودة من تصفيتها. خرجنا من الحمام فاقتادنا الحراس وعيوننا مغمضة إلى سياراتهم المتوقفة في الكاراج. صعدنا إليها ثم سمعت لأول مرة منذ ثلاثة أيام ضوضاء الشارع وزمامير السيارات وعجقة المارين. وبعد دقائق قليلة توقفت السيارة واقتادنا أحد الحراس في طريق مظلم ثم قال لي: «ستدخل الآن إلى سيارة عالية فارفع رجليك». ثم سمعت صوت سائق الرانج روفر يقول: «تستطيع أن تفتح عينيك الآن. نحن حراس العلّامة السيد محمد حسين فضل الله وهو ينتظركما في بيته». فتحت عيني على الأنوار الكهربائية وأجهشت في البكاء.

في الساعة الثامنة وعشر دقائق وصلنا إلى بيت السيد فضل الله وكان في انتظارنا السيد منير أبو فاضل ونجله مروان والأطباء عدنان مروه ونجيب أبو حيدر وإسماعيل سكريه وغيرهم، وحشد كبير من الصحافيين والمراسلين الأجانب ومراسلي الإذاعات والتلفزيون. تكلم السيد منير أبو فاضل فشكر السيد فضل الله على الجهود التي بذلها لإطلاق سراحنا، كما تكلم كل من هاني شمص باسم طلاب كلية الطب وأحمد نصر الله باسم الجامعة الأميركية. ثم قلت كلمة أكدت فيها أننا سنبقى في منطقتنا رأس بيروت لمساعدة كل الناس بمختلف طوائفهم. ولم يلبث المراسلون الأجانب أن هجموا يسألونني هل رأيت أحداً من المخطوفين الفرنسيين. وكانت قد سرت يوم اختطافنا شائعة في بيروت مفادها أن احتجازي ما هو إلّا لمعالجة مريض من المحتجزين الفرنسيين.

وصلنا إلى البيت فعانقت أختي الكبرى أفلين التي كانت مصدر

قلق كبير لي إبان خطفي لشدة تعلّقها بأخيها الحكيم. ورأفة بالزائرين الذين احتشدوا في البيت استأذنتهم في الذهاب إلى الحمام لأن رائحتي أصبحت لا تطاق. فتحممت بعطر وتنشفت بنور كما يقول جبران خليل جبران، ودلقت قنينة «أوسوفاج» على جسدي الذي نقص أربعة كيلوغرمات في هذه الفترة القصيرة، ثم خرجت إلى الصالون لاستقبال المهنئين. وفي اليوم التالي دعيت لألقي كلمة في قاعة الاجتماعات في كلية الطب، وأذكر أني بدأت كلامي بالقول: «بذلت ثلاثين سنة من الجهد لأصبح طبيباً جيداً ولم يعزني أكثر من أربعة أيام لأصبح طبيباً مشهوراً».

ومع مرور الوقت عاد كل شيء إلى طبيعته وأصبحنا والحمد لله خبراً منسياً. غير أن هذه التجربة علّمتنا أموراً هامة. فليس من المبالغة إذا قلت إن عملية الخطف التي تنتهي بالإفراج عن المخطوف لها تأثير على نظرة الإنسان إلى الحياة. فبالرغم من قصر مدة خطفنا التي لم تتعدّ ثلاثة أيام تلقنت دروساً لم أتعلمها طوال السنين السابقة. فالحرية مثلاً التي نتغنى بها ونحارب من أجلها ونكتب عنها وننشد فيها أغاني ونرسم لها لوحات تصبح حقيقة لها جسد نلمسه ونشم رائحته وهنرى بدايته ونهايته.

فكل من عاش تجربة الخطف فكان لا يستطيع الذهاب إلى بيت الخلاء إلّا بأمر من الخاطف، ولا يستطيع أن يفتح عينيه إلّا بموافقته وأن يضيء أو يطفىء ضوء الغرفة إلّا متى شاء سجّانه، يشعر بعد الإفراج عنه بأهمية الحرية وعظمتها بعد أن كان يعتبرها أمراً بديهياً، ويتلذذ بالأشياء التي كان يمرّ أمامها دون توقف أو مبالاة. فتأمّله طلوع الشمس وغروبها يصبح لذة، والزهرة الصفراء صارت تستوقفه بعد أن كان من قبل يدهسها، واللاشيئيات الصغيرة

كالمشي على الطريق والتحدث مع حلاق الحي أو سماع صوت البائع تصبح مصدر سعادة. وبعد هذا الاختبار المرير تغتسل الروح بمسحوق يزيل الأوساخ التي تراكمت طوال السنين. فالغرور والبطر والجشع والغطرسة والسخف تهرّ كالحشرات أمام المبيدات. وهول الخطف يعمل على تثبيت قدمي الإنسان على الأرض فيكتسب مناعة قوامها مزيج من الرزانة والصبر والقناعة. إنه اختبار أليم وغني في الوقت نفسه.

وهناك دروس أخرى تعلمتها وعشتها مثل آلية الخوف وفلسفة الموت. فقد ذكرت سابقاً أنني جريء في أقوالي وأفكاري لكنني جسدياً أقرب إلى الجبان. فإبان القصف العشوائي كان الخوف ينتابني وكنت أجزع من المشي على الطريق وأصاب بعوارض جسدية كالألم في المعدة والتقيؤ والعرق البارد والصداع وسرعة دقات القلب بالإضافة إلى الكآبة والسويداء. أما إبّان الخطف، وبالرغم من الخطر الحقيقي واحتمال التصفية الجسدية في أي وقت من الأوقات، فقد اختفت كل هذه الانفعالات الجسدية والنفسية وحلّ محلّها صفاء ورزانة لم أعهدهما من قبل. ولن أنسى أبداً هدوئي النفسي في تلك اللحظة التي سمعت فيها دوي الرصاص في الغرفة المجاورة ثم صوت القبقاب يقترب من غرفتنا مما أكد لي أن دورنا قد أتى، إذ جالت في رأسي الهادىء أفكار حزينة خالية تماماً من أي نوع من الهلع أو الهستيريا. فدهشت من ردة فعلي، وتفكرت فيها كثيراً في الأشهر التي تلت إطلاق سراحي، ووصلت إلى قناعة مفادها أن الموت عندما يصبح حقيقة لا يخيف.

الفصل التاسع

دردشات

بدأت المعاينة في عيادتي الخاصة أوائل حزيران ١٩٥٧، وكانت العيادة آنذاك عائلية بكل ما للكلمة من معنى. فموقعها كان منزلنا العائلي في شارع جان دارك، وغرفة الفحص ملاصقة لغرفة نوم والدتي المريضة ولا تبعد أكثر من خمسة أمتار عن الغرفة التي ولدت فيها. في البداية، أي في أول شهر أو شهرين من مزاولتي المهنة، كان عدد المرضى الذين يؤمون العيادة قليلاً. ولتفادي الضجر والانتظار كنت أنتقل إلى غرفة والدتي أو أنزل إلى الطابق السفلي لأتناول القهوة الأميركية مع ابن خالتي سامي صاحب مقهى أنكل سام الشهير. وكنت قد زوّدت سكرتيرتي الأرمنية أنوش بتعليمات صارمة تقضي بأن لا تبوح بمكان وجودي إذا ما اتصل أحد المرضى بل أن تخبره أنني في غرفة الطوارىء في الجامعة الأميركية أو ألقي محاضرة أو غير ذلك من المسؤوليات الطبية المحترمة وأنها ستعمل المستحيل للاتصال بي لأرجع إلى العيادة. ولحسن الحظ لم تدم هذه

الحال طويلاً فسرعان ما ازداد عدد مرضاي فقلّت زياراتي للأنكل سام وجلوسي قرب سرير الوالدة. وكنت تعلمت من أساتذتي في المستشفى أنه من الأفضل بادىء ذي بدء أن أعطي مواعيد لاثنين أو ثلاثة مرضى في الوقت نفسه حتى يحسبوا أن العيادة مكتظة بالزبائن وأن المواعيد كثيرة.

الطبابة أو التطبيب مهنة لذيذة وشاقة في آن واحد. وأهم مزاياها أنها تكسب نضوجاً واختباراً لا يمكن أن تمنحهما مهنة أخرى. فالطبيب يرى الإنسان على حقيقته العارية دون غطاء. فالملك والوزير والقائد وغيرهم من أصحاب القرار إذا تعرّوا يصبحون كغيرهم من الناس، فينقلبون من رجال يصعب الوصول إليهم إلّا بعد عناء وحواجز كثيرة إلى أناس عاديين. وفي العيادة تظهر حقيقة الإنسان وتنزع عنه الأقنعة التي يستتر بها. وبعد برهة قصيرة من المقابلة تجد أن هذا الرجل القوي الجريء الذي تشاهده يومياً على شاشة التلفزيون وفي كل وسائل الإعلام كالحصن المنيع أو الجبل الشامخ ما هو إلّا إنسان مثل غيره من الناس، له القدرة على الضحك والبكاء والخوف والألم والقلق من المجهول، فينصاع كالتلميذ الطائع لما يقوله له المعلم.

بعد سنة من مزاولتي الطب في لبنان مررت باختبار سريري علمني الكثير. فلقد جاءني رجل علمت لاحقاً أنه من كبار المحامين في لبنان وأنه ذو شهرة واسعة وذكاء حاد وسرعة خاطر كبيرة. عاينته بعد أن عاينه طوال سنين عديدة أشهر الأطباء في أوروبا والولايات المتحدة. وبعد فحص دقيق تبيّن لي أن أعراضه ناتجة من تأثير الاضطرابات النفسية على الجهاز الهضمي. وكنت أعلم حق العلم آنذاك أن مثل هذا النوع من الأعراض الوظيفية لا يتجاوب مع

العلاج لأنه عرضة لتقلبات نفسية من الصعب على الطبيب معالجتها. لكن غروري وثقتي بنفسي وطموحي بأن أنجح حيث فشل كبار الأطباء دفعتني إلى أن أؤكد له أن علاجي سيشفيه. واستعنت بكل ما أملك من بلاغة ومنطق لشرح مشكلته المرضيّة، ثم وصفت له علاجاً وطلبت منه مراجعتي بعد شهر ليوافيني بالنتائج. وبعد شهر دخل الأستاذ الكبير إلى عيادتي وعلى وجهه ابتسامة عريضة، مما بعث الارتياح عندي، فتأكدت من نجاح علاجي ومن أنني انتصرت على جهابذة الطب في أوروبا والولايات المتحدة. فقلت له بنبرة المنتصر: «الظاهر يا أستاذ أنك استفدت من العلاج». وفي تلك اللحظة مرّت في مخيلتي تظاهرة من سيناريوات النصر والبطولة والشهرة لهذا الطبيب الشاب الذي صنع المعجزات ونجح حيث فشل الآخرون. وعندها أجاب بهدوء والابتسامة لم تفارق وجهه: «بهنّيك يا دكتور... علاجك مثل ساعة الرولكس السويسرية... لا يقدم ولا يؤخر». حاولت بلغ غروري وطموحي وفشلي وتعلمت درساً لم أنسه.

وبعد مضي سنة على هذه الحادثة طُلب مني أن أعالج رئيس دولة عربية مجاورة، فأوصلني سفيرها في لبنان إلى المطار، واستقبلت في البلد الصديق استقبال الشخصيات الكبيرة وأعلمت أن الموعد لمقابلة الرئيس المريض حدّد في الساعة الحادية عشرة صباحاً من ذلك اليوم. فجاءني إلى الفندق ثلة من الحرس الخاص لمواكبتي إلى القصر حيث انتظرت في صالة فخمة. وبعد مرور ساعة على الموعد المحدّد انتابني الغضب الشديد وقلت لقائد الحرس إنني لم أعد أستطيع الانتظار، وصممت على الذهاب إلى الفندق، ثم جرت مشادة كلامية حادة بيني وبين رئيس الحرس الذي أصرّ على بقائي خوفاً من غضب الرئيس، غير أنه عاد فأخلى سبيلي ورجعت إلى الفندق.

وفي الساعة الواحدة تلقيت مكالمة من طبيب الرئيس يعتذر فيها عن عدم تمكن الرئيس من مقابلتي لأسباب طارئة، ويحدّد موعداً ثانياً في الساعة الخامسة بعد الظهر. ومرت الساعة الخامسة وأنا منتظر في صالة القصر الفخمة أرتجف غضباً إلى أن قدم الرئيس في الساعة السادسة والنصف، فحيّاني ولم يعتذر عن تأخره، ولاحظ علامات التجهم والغضب على وجهي فقال لي: «ما بالك يا دكتور غاضباً وحاقداً؟»، فذكّرته بالتأخير عن الموعد مرتين، فتجهّم وجهه واصفرّت ملامحه وقال لي غاضباً: «يا دكتور، الوزراء والسفراء وغيرهم ينتظرون أياماً وأسابيع لمقابلتي، ولا يشكون من ذلك». فرددت بسرعة وبغضب أيضاً قائلاً: «الفرق بيني وبين الوزراء والسفراء أنهم هم الذين يطلبون الموعد لمقابلتك، وهم المحتاجون إليك. أمّا أنا، فلم أطلب منك موعداً بل أنت أردت أن أعالجك فلبيت طلبك بكل سرور تاركاً أشغالي وأعمالي في بيروت». مرت ثوان طويلة من السكوت التام إلى أن تجاوزنا محنتنا وأصبحنا بعدها أصدقاء.

ومن أطرف الحوادث الطبية التي مرت عليَّ ما جرى عند معالجتي رئيساً سابقاً لدولة عربية. فلقد طلب هذا الرئيس مني يوماً أن أزوره في البيت لنزيف طارىء أصابه. وبعد الفحص أشرت عليه بدخول المستشفى لتزويده بالدم. وفي سياق الحديث ذكر أنه كان يتعالج عند أستاذ كبير في الطب في جنيف، وطلب مني بأسلوب لا يخلو من الإهانة أن لا أجتهد في التشخيص لأن طبيبه السويسري أكد له أنه مصاب بقرحة في المعدة، ولا لزوم لأن أعمل أي شيء سوى الاتصال به لتنفيذ تعليماته. وبالرغم من انزعاجي الكبير، ونظراً لدقة حالته، قررت أن لا أجابهه بادىء ذي بدء مع إصراري على الكشف عليه مجدداً إذا لم يطرأ تحسن على حالته الصحية. ولم

يمضِ يوم حتى تدهورت حالته وازداد النزيف، فأصررت على أن أجري له فحوصات جديدة ليقيني أن تشخيص الطبيب السويسري كان خاطئاً. وبالرغم من الوهن الذي أصابه نتيجة النزيف صرخ فيَّ غاضباً وقال إن تشخيص البروفسور السويسري لا يقبل الجدل وإنه لن يسمح لي بأن أجري أي فحص إلّا بعد مجيء طبيبه إلى بيروت. وفي اليوم التالي وصل البروفسور من جنيف وتحدثنا ملياً فقبل مرغماً أن أجري كشفاً شعاعياً جديداً لأن الصور القديمة التي أخذت في جنيف لا تدل بوضوح على وجود قرحة في المعدة. وتبيّن بعد التصوير الجديد أنه مصاب بورم في المعدة مع ثقب كبير، مما يفسر النزيف الحاد. فأجرينا له عملية جراحية طارئة وكان ينبغي إجراؤها قبل يومين لتفادي مضاعفات النزيف، ومع ذلك تمت العملية بنجاح لحسن الحظ. وبعد ثلاثة أيام أحضرت القسم الذي استؤصل من المعدة وقلت للمريض إن تشخيص طبيبه السويسري لم يكن صائباً، وإن مرضه ناتج من نزيف بسبب ورم سرطاني محدود. فلما رأى معدته والكتلة التي فيها قال لي: «هذا ليس بورم بل إن القضية العربية «محشّاية» فيها». وفي اليوم التالي سافر البروفسور السويسري ومعه مبلغ كبير من الدولارات وشكر على عنايته الفائقة وعلمه الوفير. ولم يفت المريض وأفراد عائلته أن يعتذروا عن العذاب وعن مشقات السفر التي تكبّدها البروفسور من أجل مريضه. ولما خرج من المستشفى ورأى القيمة التي سجلتها لقاء أتعابي، وهي لا تبلغ عشر ما تقاضاه البروفسور السويسري، تذمّر وأرسل العديد من أقربائه للتوسط من أجل خفض المبلغ.

وبعد مرور سنتين على هذه الحادثة اتصل بي فخامة الرئيس يشكو أعراضاً نفسية أهمها الكآبة وسهولة البكاء وقلة النوم. فحاولت التخفيف من مصيبته وشجعته وأوضحت له أن هذه الأعراض عابرة

وهي نتيجة حتمية لشخص كان يرأس البلد وأصبح مهمشاً عن القرار. وحاولت أن أنصحه بما يجب أن يفعله لمعالجة هذا الوضع النفسي الكئيب، وقد وجدت في غرفته مكتبة رائعة مليئة بالكتب النفيسة، فقلت له: «لِمَ لا تستمتع بالقراءة، فمكتبتك من أغنى المكتبات وفيها العديد من كتب التاريخ القيّمة فلمَ لا تقرأ التاريخ؟»، فردّ عليَّ بسخرية واشمئزاز: «يا ابني، أنا لا أقرأ التاريخ، أنا أصنع التاريخ».

ولا بد في هذا المجال من شرح بسيط لعقلية المريض العربي. فالفكرة الرائجة عند الكثيرين من المرضى والتي لا تقبل المساومة أو الجدل هي حتمية وصف الدواء. فمجرد ذهاب المريض إلى طبيبه يعني أن المريض يتوقع وصفة طبية. وهذه العقلية السائدة كلفت الطب كثيراً من نزاهته والمريض كثيراً من ماله والطبيب كثيراً من استقامته. وكلما كانت الوصفة طويلة ووجد المريض صعوبة في تأمينها ازداد إعجاب المريض بطبيبه. وكم من مرة سمعت المريض يقول لي: «لقد وصف الطبيب فلان دواء عظيماً فتشت عنه في كل الصيدليات فما وجدته إلّا على رف في إحدى الصيدليات القديمة».

وسعر الدواء له هو أيضاً مفعول سحري. فمنذ ربع قرن مرّ عليَّ أحد كبار القوم من الأمراء السعوديين لألم في معدته فوصفت له العلاج. وفي اليوم التالي طلب مني مقابلة مستعجلة فهرعت إلى شقته في الفندق الفخم فاستقبلني بغضب شديد قائلاً: «يا دكتور، أنا جئت من السعودية بطائرة خاصة لاستشارتك وحجزت كل الطابق الأعلى في الفندق لي ولحاشيتي، وبعد كل هذا تصف لي دواء ثمنه سبع ليرات فقط! أهذا كل ما علموك إياه في أميركا؟ أرجوك أن تصف لي دواء أقوى وإلّا اضطررت إلى أن أسافر إلى

لندن لأستشير كبار أساتذة الطب هناك». فاعتذرت منه وأكدت له أنني سأشرف شخصياً على تركيب الدواء الجديد وسأحضره له. فذهبت إلى صيدلي صديق وأخبرته ما جرى وطلبت منه أن يصنع الدواء نفسه في برشانة كبيرة وأن يقدم فاتورة بمئة وخمسين ليرة ثمن الدواء. وبعض مضي يوم واحد على تناول هذا الدواء الجديد زارني الأمير مودعاً فشكرني وقال: «هذا دواء... الله يسامحك لماذا لم تصفه لي من أول مرة؟»، فأخبرته بالحقيقة وأنا مزهو بنشوة الانتصار وأرجعت له ما تبقى من حساب الدواء، ولم ألمحه منذ ذلك الحين.

وهناك أمثلة أخرى على انعدام الثقة بين الطبيب والمريض نمرّ بها يومياً في الممارسة الطبية ومع المريض العربي على الأخص. فكثيرون من المرضى يستشيرون أكثر من طبيب للتأكد من صحة التشخيص. فإذا اتفقت الآراء هانت المشكلة، لكن المصيبة تقع عند اختلاف الآراء، واختلاف الآراء عند الأطباء طبيعي وكثير الحدوث. وفي هذه الحال يدور المريض في دوامة لا نهاية لها فيضيع الوقت الثمين والمال الوفير والفرص المناسبة للعلاج. ولعل أغرب ما يحدث هو حجب المعلومات عمداً عن الطبيب. فكم من مريض أدخلته إلى المستشفى وبعد أيام من الجهد والتفكير أخبرت أهله أنني اكتشفت المرض والحمد لله، وأن مشكلته باتت معروفة ويلزمها عملية جراحية، فيبتسم أهل المريض قائلين: «يا دكتور، نحن نعرف كل هذا، وقد أُجريت له الفحوصات نفسها في مستشفى آخر منذ أسبوع، وهذا التقرير يؤكد ما تقول. شكراً»! فعلاقة المريض بالطبيب هي علاقة الشخص المتربص بالآخر منتظراً أن تزلّ قدمه أو أن يرتكب خطأ فينقضّ عليه.

سردت هذه القصص حول تجربتي مع المريض العربي، وخصوصاً مع ذوي الشأن من المرضى، لا في سبيل التسلية والترفيه عن النفس بل لأبرز ظاهرة عشتها وأختبرتها عبر السنين الطويلة من الممارسة الطبية. وللتوضيح، فإن الجسم الطبي في العالم الغربي كأميركا والدول الأوروبية يتمتع بثقة الناس إذ لا يمكن أن يفكر المريض في التشكيك بمقدرة الطبيب. أما في لبنان، كما في سائر العالم العربي، فالنظرة إلى الطبيب مختلفة تماماً.

والمضحك المبكي في هذا المجال أننا نسمع حكّامنا يتباهون بقدرة الشعب اللبناني وذكائه ومعرفته وعنفوانه وعلمه.. إلى ما هنالك من أوصاف عبقريته، ونقرأ في الجرائد في الوقت نفسه أن ذلك الزعيم أو الوزير أو الباشا سافر إلى أوروبا أو إلى أميركا لإجراء فحوص طبية، أو ذهب لإجراء عملية استئصال المرارة في باريس. فالعنفوان والعبقرية اللبنانية والذكاء الخارق ما هي إلّا للاستهلاك المحلي، أما الصحة والتطبيب فموضوع آخر لا علاقة للعنفوان به.

إبان مزاولتي الطب، وبعد خمس سنوات من الممارسة، بدأت أركز اهتمامي على دراسة الاضطرابات النفسية ومدى علاقتها بأعراض وأمراض الجهاز الهضمي، الوظيفية منها والعضوية. وجاء هذا الاهتمام بعد ملاحظاتي أن الأغلبية الساحقة من المرضى الذين يأتون للمعالجة يشكون من أعراض لا أساس عضوياً لها. وكلنا يعرف الآن مدى تأثير الزعل والخوف والكبت والغضب والقنوط على وظائف الجهاز الهضمي، وكلنا مقتنع أن لا علاج لهذه الأعراض سوى التغلب على هذه الاضطرابات النفسية. فالمسكّنات والمنشطات وسائر العلاجات العصبية كلها تعمل فقط على تخفيف حدّة الأعراض من دون إزالة أسبابها.

ووجدت أن من الأفضل أن أوثق علاقتي بالأخصائيين في الأمراض العصبية والنفسية. وأذكر الصديق الدكتور علاء الدين دروبي الذي كان له القسط الأكبر في تثقيفي في هذا المجال. وكنت أزوره في بيته الجميل في «العصفورية»، وهي من أهم مستشفيات الأمراض العصبية والنفسية ومن أقدمها في العالم. وكان لهذه الندوات العلمية تأثير كبير على فهمي لهذه الأمراض، فرسمنا خطة لعلاجها كان لها نصيب لا بأس به من النجاح. والطريف في هذا المجال أننا تفرعنا من اهتمامنا بالأمور النفسية إلى مواضيع أخرى أهمها السحر والشعوذة وقراءة الدماغ والإدراك الحسي.

وكنت من قبل أنظر إلى هذه الأمور على أنها خرافات لا أساس لها من الصحة أو الحقيقة وأنها كلها شعوذات بشعوذات إلى أن تعرفت إلى الدكتورة شفيقة قره جلّا التي تخرجت من كلية الطب في الجامعة الأميركية ثم تابعت دراستها في الولايات المتحدة الأميركية إلى أن أصبحت أستاذة في دائرة علم النفس في جامعة كاليفورنيا ومديرة قسم «الإدراك الخارج عن نطاق الإدراك الحسي» في تلك الجامعة. لقد كان لنا معها جولات عديدة في هذا المجال قلبت مفاهيمي وجعلتني أميل إلى دراسة هذا الموضوع عن كثب.

ومن الأمر التي ذكرتها الدكتورة قره والتي لم أكن لأصدقها لو سمعتها من غيرها، أن قضية قراءة الدماغ مسألة مبرهنة علمياً. ففي إحدى الجلسات التي كانت تديرها في كاليفورنيا مع الأشخاص الذين يملكون القدرة على قراءة الأفكار قال لها أحدهم بعد أن ذكر رقم هاتف ما: «الرجاء أن تتصلي بهذا الرقم في لندن وأن تنصحي المريض بالذهاب إلى المستشفى لأنه مصاب بالتهاب في الزائدة». فاتصلت الدكتورة بالرقم فأجابتها سيدة في لندن، فقالت لها

الدكتور قره: «عندكم حادثة التهاب في الزائدة». فأجابتها السيدة: «لقد جاءت سيارة الطوارىء والمريض في طريقه إلى المستشفى». حادثة كهذه لو لم تكن صادرة عن أستاذة كبيرة في علم النفس تعمل في الأبحاث الأساسية في إحدى أهم كليات الطب في الولايات المتحدة لكنا تقبلناها بابتسامة ومررنا عليها مرور الكرام.

وبمرور الأيام والأشهر وتراكم الأحداث المماثلة وجدت أنه لا مفر من مواجهة هذه الظاهرة والتحقق منها. فلم يبق لي سوى الذهاب للتعرف إلى الدكتور داهش المشهور الذي أسس مدرسة لها أتباعها من الأطباء والشخصيات اللبنانية، والذي يقول عنه الجميع أنه صاحب معجزات.

ذهبت والدكتور دروبي إلى بيته المتواضع في بيروت وعرّفنا عن أنفسنا. وجدنا أن الدكتور داهش رجل عادي ذو ابتسامة مريحة ويتكلم بصفاء كأي رجل عادي. شربنا القهوة معه، وبعد نصف ساعة رجعنا من دون البحث في أي موضوع. تكررت الزيارات إلى أن جاءت الزيارة الرابعة عندما فتح الدكتور داهش الموضوع للمرة الأولى بقوله: «أيها الطبيبان، أنتما تريدان أن تعرفا إذا كنت حقاً مشعوذاً أو ساحراً كما يقول الناس عني. وبابتسامة بريئة نظر إليّ وقال: «يا دكتور منير، بتريد علمك شي سحر؟»، فقلت: «بكل سرور». فذهبت وإياه إلى غرفة مجاورة فجاء برزمة من ورق الشدة وقال لي: «اسحب ورقة ولا تدعني أراها ثم أرجعها مكانها»، فسحبت الاثنين الديناري ثم أعدتها إلى مكانها، وحملت رزمة الأوراق معي. عندها طلب من الدكتور دروبي أن يذهب إلى الغرفة المجاورة وقال له: «افتح الصفحة كذا من الكتاب الموجود في المكتبة في تلك الغرفة وستجد الورقة التي سحبها الدكتور منير». وجاء

الدكتور دروبي ومعه الورقة، وإذا هي الإثنان ديناري. فابتسم الدكتور داهش وقال: «هل هذا يرضيك يا دكتور منير؟» فأجبته: «لا شك أن هذا مذهل لكن له تفسير. فأنت يا دكتور تعلم بمجيئنا إليك اليوم. وبما أن لديك طاقة تأثير عليَّ، فلقد جعلتني أسحب ورقة الإثنين ديناري بعد أن وضعتَ ورقة مماثلة في الكتاب الذي فتحه الدكتور دروبي». فقال الدكتور داهش والابتسامة ما زالت على شفتيه: «برافو دكتور منير، إنك حقاً رجل علم، وأنت تريد أن تتأكد ممّا جرى بواسطة الاختبار، فماذا تريد الآن؟» فقلت: «أريد أن أوقع اسمي على الورقة التي أسحبها». فقال: «ما في مانع». فسحبت ملكة البستوني ووقعت اسمي عليها. فذهب الدكتور دروبي إلى الغرفة المجاورة وفتح الكتاب الذي أشار إليه الدكتور داهش فوجد ملكة البستوني وتوقيعي عليها.

اعتراني الخوف والاضطراب، غير أني تمالكت نفسي وقلت: «هذا عمل مدهش، لكني أستطيع تفسيره. فأنت تملك القدرة على تنويمنا، وبما أنني لم ألحظ الوقت، فمن المحتمل أن تكون نوّمتنا برهة قصيرة وطلبت مني خلالها أن أكتب توقيعي على الورقة المماثلة ثم وضعها في هذا الكتاب». فقال الدكتور داهش: «تحليلك معقول، فأنا أملك هذه القدرة، فماذا تريد أن أعمل؟»، فقلت له: إنك لا تستطيع أن تنوّم آلة التصوير ولذا فإني أريد أن آتي في المرة القادمة مع آلة تصوير، كما أريد أن ألتقط صورة لوالدي الذي توفي منذ أكثر من ربع قرن مع الدكتور دروبي. فأجاب: «هذا طلب صعب ولا أستطيع القيام به إلّا إذا حضرت جلسة الأرواح، وهي قد تأخذ وقتاً طويلاً ربما استغرق عدة أسابيع. وسأعلمك عندما تحضر جلسة الأرواح لتأتي مع الدكتور دروبي وآلة التصوير». وقبل أن نغادر بيت الدكتور داهش تلك الليلة قال لي مازحاً: «يا منير، أريد أن أعلّمك

شغلة صغيرة، فهل معك ورقة بيضاء؟»، ففتشت في محفظتي فوجدت فيها مفكرة لطيران الشرق الأوسط تحتوي على أوراق بيضاء في آخرها، فنزعت منها واحدة، فقال: «شدّ على هذه الورقة بكل ما تملك من قوة»، فشددت عليها، ثم طلب مني أن أفتح يدي ففتحها وإذا فيها ليرة لبنانية جديدة. ذهبت في اليوم التالي إلى البنك البريطاني لأتحقق من صحتها، وإذا بها ليرة لبنانية صحيحة.

بعد شهر تقريباً من هذا الاجتماع، كنت أنا والدكتور دروبي نزور الدكتور سهيل بولس في بيته. رنّ الهاتف وإذا المتحدث هو الدكتور داهش. طلب أن يتحدث معي ثم قال لي: «تعال إليَّ أنت والدكتور دروبي، ولا تنسَ أن تحضر معك آلة التصوير، فجلسة الأرواح أصبحت جاهزة». فدبّ فيّ الذعر ولم أعد إليه أبداً.

الفصل العاشر

الشيخوخة

ما ستقرأونه الآن هو ما كتبته في الطبعة الأولى من «إقلاع وهبوط» والذي يتناقض مع ما كتبته في مقدمة كتاب «جس نبض» (الصادر في طبعته الأولى بالتزامن مع صدور الطبعة الثانية من «إقلاع وهبوط») عن التقاعد والشيخوخة. إذ تغيّرت الأمور فتحسنت نفسيتي وازدادت إيجابيتي وثقتي بالنفس و«بمستقبلي» قصر أم طال.

عندما اختمرت فكرة كتابة مذكراتي منذ سنة ونيّف، لم يتوضّح لي من محتويات كتابي سوى فصله الأخير هذا وعنوانه الشيخوخة. ولم أعان جهداً في كتابته لأن الشيخوخة بدأت تتغلغل فيَّ جسداً وروحاً وفي مختلف المناسبات الأكاديمية والاجتماعية. وقد خطر في بالي أن أعنون هذا الكتاب «من الإقلاع إلى الهبوط» لتأثري العميق بمعنى الشيخوخة، مع العلم

بأن هبوط الطائرة يتبعه إقلاعات عديدة، أما هبوط الإنسان فهو الهبوط الأخير ولا إقلاع بعده إلّا لمن أقنع نفسه بالانتقال من العالم الفاني إلى عالم البقاء حيث جنة عدن وما فيها من أنهر جارية وعسل وحليب وحوريات. فالشيخوخة حقيقة لا مفرّ منها، تتربص بنا بعد عمر معين يختلف بين إنسان وآخر. فمن الناس من تأتيه في الخمسين من العمر، ومنهم من لا يشعر بوطأتها قبل السبعين. كما أن التعامل مع الشيخوخة يختلف بين شخص وآخر، فمنهم من يرفضها، ومنهم من يتعايش معها، ومنهم من يسعد بقدومها. والذي ينتمي إلى الفريق الأول الرافض لها هو أتعسهم، إذ يصاب بمزيج من الغضب والكآبة، وهما صفتان تعملان تدريجياً على نهش مركّز لشخصيته وتصرفاته، فينقلب من ذلك الإنسان الطيّب الوديع العقلاني إلى إنسان غاضب من كل شيء، وناقم حاقد على كل شيء. فيبدأ بالشك في كل معارفه، بدءاً بأهل بيته ووصولاً إلى أعزّ أصدقائه. فينتقد تصرفاتهم أياً كانت ويفقد القدرة على الاستمتاع بالأشياء. فلا الطقس الجميل يرضيه، ولا منظر غياب الشمس يسعده، ولا رائحة زهر الليمون في الربيع تلذّه. الحديث الشيّق يصبح مملاً، والفيلم المضحك يغدو سخيفاً، والموسيقى التي كان يستمتع بسماعها تضجره، إما لفقدان السمع عنده أو للكآبة التي تطغى عليه. والنتيجة الحتمية لهذا المركّب من السلبيات هو الاتجاه الأكيد نحو الانفراد، فيتقوقع في غرفته أو بيته ويبتعد عن الناس كما يبتعد الناس عنه لتفادي شرّ لذعاته المؤلمة وجلساته المضجرة، وينتهي كئيباً وحيداً غاضباً حزيناً مهمّشاً، لا علاقة له بالمجتمع ولا علاقة للمجتمع به. ولعلّ أجمل تعبير عن هذه الحال ما ورد في قول طرفة بن العبد:

إلى أن تحامتني العشيرة كلّها   وأفردتُ إفراد البعير المعبّد

مع العلم أن الشاعر الجاهلي قال هذا البيت في مجال لا علاقة للشيخوخة به.

ولحسن الحظ، فإن الصورة القاتمة التي رسمتها لا تنطبق على كل من دخل طور الشيخوخة. فالكثير من الناس يتعايش مع الشيخوخة إلى حدّ التمتع بها، ويسعد بها بقدر ما أسعده شبابه. ولهذه النظرة الإيجابية فوائد كثيرة تعطي الإنسان زخماً روحياً وجسدياً جديداً وتفتح أمامه فرصاً لم تتح له من قبل. فالسلام على الروتين القاتل والمملّ الذي دام نصف قرن كتناول الفطور بسرعة، والتهام آخر لقمة على باب المصعد، والجلوس عند الساعة الثامنة صباحاً من كل يوم في الغرفة نفسها على المقعد نفسه مع الأشخاص أنفسهم الذين يشكون من المشاكل نفسها، إلى أن تأتي فرصة الظهر، ومدّتها ساعة على الأكثر، ثم إلى العمل من جديد حتى المساء، يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة. أما الآن، وبعد تقاعد الإنسان عن أعماله اليومية فهو يستيقظ ساعة يشاء، فلا موعد أو وظيفة أو محاضرة أو مقابلة تجبره على الإسراع، فيتناول طعام الإفطار بهدوء ويتلذذ بكل «مجّة» من القهوة، ثم يذهب إلى حيث يشاء. فمن الناس من يمارس المشي على شاطىء البحر، ومنهم من يذهب إلى مكتب يمارس فيه أعمالاً تلذّه كالكتابة أو القيام بأبحاث في مواضيع بعيدة عن روتين أعماله. فالحياة ليست كلها طبّاً أو هندسة أو تجارة أو إدارة أعمال، فهناك كتب قيّمة لا بد من قراءتها، وهناك أعمال فنّية لا بد من الاطلاع عليها، وهوايات ملذّة لم تسنح الظروف لممارستها. وعند الظهر يلتقي بأصدقائه لتبادل طعام الغداء الذي يستغرق ساعتين أو أكثر، ثم يذهب إلى البيت ليتمتع بقيلولة قصيرة. وعندما يأتي المساء يكون قد تساوى مع كل الكادحين

الذين قضوا نهاراً طويلاً مليئاً بالروتينات المزعجة والمشاكل المعقدة والمقابلات العقيمة.

وبين النظرة السلبية والنظرة الإيجابية إلى الشيخوخة قاسم مشترك ألا وهو الشيخوخة الجسدية. فبالرغم من كل الحوافز الإيجابية التي يتسلّح بها الإنسان لمقاومة شيخوخته لا بدّ من القول أن ثمة عوامل جسدية تعمل على تذكير صاحبها بأنه لم يعد شاباً. وتراكم هذه العوامل الجسدية وكثرتها يلعبان دوراً هاماً في تصرفات الإنسان.

وعلى سبيل امثال، الاستيقاظ صباحاً لا يتمّ بالسهولة التي كنا نعهدها أيام الصبا. فالقفز من الفراش إلى الحمام، وارتداء الثياب بلمح البصر وبدون عناء، ما عادا ممكنين كما من قبل. فالألم والتشنّج بدءاً من الرقبة مروراً بالكتفين ونزولاً إلى الظهر، والوخز والنخز في الركبتين والقدمين مع كل فشخة يفشخها الإنسان وكأنه إنسان كسيح، كل هذا يرافقه تشنّج لمدة ربع ساعة أو نصف ساعة إلى أن تتحلحل مفاصله وعضلاته ليسترجع توازنه وقدرته على التحرك من دون ألم أو انزعاج.

ولا ننسَ أن النوم الذي كان يبتدىء مع إطفاء النور في الغرفة ولا ينتهي إلّا بالاستيقاظ بعد ثماني ساعات أو عشر ينامها الشاب من دون قلق، قد أصبح مشكلة ليلية يقضي فيها الإنسان الساعات للتغلب على القلق. وما إن يتغلب سلطان النوم عليه حتى يستفيق مرات عديدة في الليل للذهاب إلى الحمام. فآفة الرجال في هذا العمل تضخّم البروستات الذي ينجم عنه عدم تمكنهم من خزن البول إلّا لساعات قليلة. أمّا النساء اللواتي لا بروستات عندهن فيستفقن للغرض نفسه ولو اختلفت الأسباب. وهكذا يبدأ نهار

الجميع، رجالاً ونساء، وكأنهم قاموا بأعمال شاقة طوال الليل.

ولا يخلو عضو من أعضاء جسم الإنسان من تقلبات واضطرابات ليست بالضرورة مرضيّة، وهي تسبّب أعراضاً كثيرة كعسر الهضم إذا تناول الإنسان طعاماً دسماً، أو آلاماً في الصدر إذا مشى بسرعة. ولن أطيل في تعداد كل هذه الظواهر، وسأكتفي بالقول أن الإنسان في هذا العمر لا يخلو من عوارض تذكّره دائماً بعملية اهتراء بطيئة وأكيدة، لا علاج لها سوى تركيزه على محاربتها بأساليب أهمها قوّته الروحية ونظرته الإيجابية لتخفيف وطأة المشكلة الجسدية.

هذا من الناحية الجسدية، أما من الناحية النفسية أو البسيكولوجية فهناك إيجابيات وسلبيات. فالهمّ الأكبر عند المسنّ هو أن يتلمّظ كل لحظة باقية له قبل فوات الأوان، إذ لم يبق من الوقت أكثر مما مضى. فالوقت قصير ولا يسمح للإنسان بإضاعته. فبينما كنا ونحن شباب ننفق الوقت ببذخ ومن دون حساب، أصبحنا الآن نبخل بكل دقيقة تمرّ، ولا نستعملها إلّا في مناسبات نختارها بحرص ودقة، فنبتعد في أكثر الأحيان عن اجتماعيات كنا نقوم بها دون انزعاج. فالولائم الكبيرة التي يبدأ العشاء فيها عند منتصف الليل، والأعراس الضخمة، والرحلات الطويلة لتناول الغداء في أقصى الشمال أو أقصى الجنوب، والمحاضرات السخيفة، والندوات العقيمة التي يتبارى الناس فيها بخطابات طويلة وإسهال فكري عقيم، قد أصبحت ملغاة من روزنامتنا اليومية. ونستعيض عن هذه المشاريع بجلسات قصيرة وقيّمة مع نخبة من الأصدقاء. وقد تكون كل هذه الأفكار التي سردتها عن العمر الثالث، كما يُسمّى في العالم الغربي، وليدة تفكيري واختباري. لكن لا بدّ من القول إنني سمعتها منذ أكثر من أربعين سنة من مريض جاء إلى عيادتي. فقد

دخل عليَّ رجل يناهز الخمسين من العمر بلباس حمّال ومعه «شرشوره» الذي يساعده على حمل البضائع، فسألته: «أنت عتّال، ولا بدّ من أن يكون دخلك محدوداً، فلماذا لا تأتي إلى عيادتي المجانية في مستوصف الجامعة الأميركية، لا لخفض كلفة أجر الطبيب فحسب، بل لخفض أعباء الفحوص المخبرية والشعاعية التي سأجريها لك؟»، فابتسم العتّال وقال لي بصوت هادىء: «يا حكيم، لقد سمعت أنك ماهر في مهنتك، ولذا فضلت أن آتي إليك، إلى رأس النبع، في عيادتك الخاصة، لأن الحياة والصحة هما أثمن شيء في الدنيا. فالحياة تختلف عن حضور فيلم سينمائي، لأن الفيلم إن أعجبك تستطيع أن تشتري تذكرة أخرى وتشاهده مرة ثانية أو ثالثة إذا أردت، وإن لم يعجبك فما عليك إلّا أن تخرج من القاعة. أما الحياة فإن أعجبتك فأنت لا تستطيع أن تعيشها مرة أخرى، وإن لم تعجبك فأنت لا تستطيع أن تخرج منها، وعليك أن تتحمل كل إزعاجاتها حتى النهاية، إلّا إذا شئت الانتحار، وهذه جريمة محرّمة عندنا. ولذا لا أجد سبباً يجعلني أبخل على صحتي وأتعالج عند أي طبيب كان».

وكان لهذا الكلام أثر عميق في نفسي لم ألبث أن نسيته أيام الشباب، إلى أن جاءت الشيخوخة فأصبح كلام العتّال يعاودني دائماً.

لم تكن النصائح هدفاً من أهداف كتابتي هذه المذكرات، لكنني أجد من المناسب أن أشارك القرّاء اختباري في هذا الصدد. فالشيخوخة، أو العمر الذي يلي التقاعد، مرحلة مكملة للمراحل السابقة كالطفولة والمراهقة والشباب والكهولة. ولكل من هذه المراحل مشاكلها ومحاسنها ومساوئها التي لن ندخل في تفاصيلها

في هذا المجال، ونكتفي بالقول إنها لم تكن في أي وقت من الأوقات سبباً للخوف أو الفشل أو الاستسلام. وهذا الكلام ينبغي أن ينطبق تماماً على نظرتنا إلى المرحلة الأخيرة، أي الشيخوخة، كتتمة منطقية للمراحل التي سبقتها. فلا عذر للشكوى أو القنوط، ولنستمتع بمحاسنها التي فتحت آفاقاً واسعة لتمتّعنا بكل ما حُرمنا منه في المراحل السابقة ولنتحمّل أعباءها بجرأة وهدوء.

وأخيراً

وأخيراً انتهى الكتاب. وكانت فرحتي فرحة الأم بمولودها، أو العالِم بأبحاثه، أو السجين بحريته.

انتهى الكتاب، لكن هذا ليس كل ما عندي. نسيت بعض الأمور، وتناسيت أو تجاهلت الكثير منها، لا لخوفي بل لحرصي على الأمانة العلمية إذ إنني لست متأكداً من دقّة ما سأقوله.

كنت أودّ أن أكتب فصلاً عن الإنسان اللبناني... من هو؟ بدأت أولاً بنفسي وتعرّيت أمام كل من يمرّ على صفحات هذا الكتاب، ووضعت نفسي تحت المجهر. لكن هذه المحاولة المتواضعة والخجولة لا قيمة لها أمام المشروع الأضخم الذي يتناول الإنسان في لبنان. وقد أكون من القلائل المحظوظين الذين أُنعم عليهم بمعرفة حقيقة الإنسان اللبناني المعرّى. فبعد نصف قرن تقريباً من ممارسة الطب

تعرّفت إلى مئات الآلاف من اللبنانيين من مختلف المناطق والطبقات والمذاهب والأحزاب. وتحدثت معهم عن شؤونهم وشجونهم وعن كل ما يدور في خواطرهم، وجمعت كنزاً من المعلومات يصلح أن يكون مصدراً لأبحاث علمية اجتماعية جديّة، عناوينها كثيرة ومتشعبة.

فبعد رصد طبائع الإنسان في لبنان لاحظت أنه مزيج من التناقضات الممتعة: فاللبناني مهما علا شأنه ما زال يعتقد أنه بحاجة إلى صفة تضاف إلى إنسانيته لينال حقوقه. فمنهم من يحتاج إلى دينه أو مذهبه أو زعيمه أو حزبه أو منطقته، ومنهم من يحتاج إلى ثروة مالية لينال حقوقه كإنسان. كذلك فإن الإنسان اللبناني طيّب ومضياف ومزعج ومتطلّب في آن معاً. ولعلّ الأهم من كل ذلك بعض الخصال التي اكتسبها عبر القرون نتيجة الاستعمار والقهر والضيق الاقتصادي والخوف والتي أفرزت عنده ثوابت مَرَضية من الصعب إزالتها. وعلى سبيل المثال، فالحربقة والحربوق، هما اصطلاحان لا نجدهما إلّا عند اللبنانيين، يعتبران من الخصال الحميدة. كذلك مقولة «الكذب ملح الرجال» أصبحت من دعائم تصرفات اللبناني. والأخلاق الحميدة هي علامة ضعف. فالآدمي مسكين أو «مسطول»، والسرّاق شاطر، وحامل السلاح زعيم، والقبضاي هو الذي يخالف القانون. أمّا سرقة الدولة فحلال، لأن الدولة عدوة الشعب.

ولا بد من تمسيح الجوخ والزنطرة والعنطزة لتوصلك إلى حيث تريد، بينما الأمانة والجرأة وقول الحقيقة والنزاهة والتواضع هي الطريق الأكيد إلى تهميش الإنسان اللبناني وإبعاده عن مصدر القرار.

أمّا التعايش بين الأديان الذي يتباهى به يومياً السياسيون ورجال الدين فهو موجود رغم محاولتهم هم تفشيله. فالتعايش ليس بين الأديان بل بين الطبقات. فالمسلم الفقير هو أخو المسيحي الفقير، والمسلم الغني هو أخو المسيحي الثري، أمّا التعايش بين الطبقات فهو المفقود.

وحصيلة كل هذا هي الهوة العميقة التي نعيشها بين الحكّام من جهة والشعب من جهة أخرى. فبالرغم من كل التصريحات التي ضجرنا من سماعها، لا علاقة عضوية بينهما سوى إبّان تلك الأيام القليلة التي تمرّ قُبيل الانتخابات، بلدية كانت أم نيابية، إذ يتبارى الحكّام في مصافحة ناخبيهم وتقبيلهم ويعدونهم بالمنّ والسلوى.

وأخيراً لا بدّ من نظرة تفاؤلية إلى لبنان واللبنانيين. فهذا الوطن برهن بعد خمس وعشرين سنة من الحرب القذرة أنه قابل للعيش، وأنه بالرغم من كل نواقصه لا يزال البقعة الوحيدة في العالم العربي التي تتمتع ببعض الحرية والديموقراطية وبقدر معقول من احترام حقوق الإنسان.

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

فهرس الأماكن

أ

ب

ج

إقلاع وهبوط

سيرة طبيب من رأس بيروت

منير شماعة



بعد كتابه «الطب بين الحقائق والأوهام» يهدي الدكتور منير شماعه القراء هذا الكتاب ـ التحفة «إقلاع وهبوط».

وهو ليس كناية عن سيرة إنسان وطبيب من رأس بيروت فقط، بل ومن لبنان والمنطقة العربية والعالم، إذ إن المؤلف بقلمه الجريء ووجدانه الشفاف وروحه القلقة، تمكن من تعرية «الأنا» وفق مواصفات الأدب الروائي باعتباره الصيغة المثلى للكشف عن حقيقة الإنسان في الأزمنة الحديثة.

في هذا الكتاب الرائع بذكرياته وأمكنته وأشخاصه، نجد الفقر والغنى، اليأس والرجاء، الطموح والرغبة، الشك والإيمان، الحب والخوف، دون لجوء إلى أي عملية تجميل، فتأتي هذه السيرة صرخة احتجاج نبيلة في زمن الانهيار الثقافي العام.

ISBN 9953-21-388-7





6795